اغتصاب

رواية

أحمد المغلوث



الكتاب : اغتصاب (رواية)
المؤلف : أحمد المغلوث
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٨
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٥٥٨٨
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 33 - 3

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٦٤/٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : الفنان أمين الصيرفي

اغتصاب

جلس «سعد» في صدر المجلس كعادته عندما يأتي إلى مجلس صاحبه «عبد العزيز»... وضع يده اليمنى خلف رقبته، وراح يتطلع إلى وجوه الحضور، من رواد المجلس، وابتسامة كبيرة تحتل وجهه القمحي، الذي حفر الجدري فيه ندوبًا غائرةً، لم تستطع السمنة، والعافية إخفاءها... ها هو «عبد العزيز»، إلى جانبه صاحب المجلس، تعرف عليه منذ أكثر من ثلاثة عقود في «المطوع»، وإلى جانبه «أبو محمد»، تاجر التمور الشهير في المدينة، أما «أبو عبد الوهاب« تاجر المواد الغذائية في سوق «القيصرية»، فهو كان يسمع عنه قبل أن يلتقي به في هذا المجلس، حتى «سيد تقي» الذي درس في «النجف»، ويعتبر حجةً في المسائل الفقهية الشيعية، والذي يتردد عليهم بين فترة وأخرى، مستفيدا من وجودهم، وتجمعهم لممارسة نشاطه في بيع، وشراء البساتين، والمزارع، والعقارات، وحتى التمور.

قال «سعد» مخاطبًا أبي «عبد العزيز»، وهو يداعب بيده اليسرى شعيرات لحيته غير المتساوية، والتي غزاها الشعر الأبيض:

– من خلال متابعتي «لإذاعة الشرق الأدنى»، اكتشفت أن خليجنا العربي اكتسب هذه الأيام أهميةً كبرى في الصراع الدولي، لأن العالم اكتشف أن «الخليج» صار ينظر إليه باعتباره مجرد ممر، من خلاله يستطيع العالم الغربي أن يتصل بالشرق الأقصى، وغرب «آسيا»، فالسياسة البريطانية، والسياسة الفرنسية – اللتان ورثتا كثيرًا من تقاليد التعامل الاستراتيجي من الفكر الروماني – كانتا تتعاملان مع «الخليج» باعتباره معبرا للسفن الذاهبة، والعائدة من الشرق للحصول على التوابل، والحرير، ولتصدير منتجاتها إلى هناك.

فقال له «عبد العزيز»، صاحب المجلس، والذي يشاطره الاهتمام بالسياسة، وبمتابعة الإذاعات العالمية، «الأدنى»، و«لندن»، و«ألمانيا»، و«بغداد»، وغيرها من الإذاعات التي يلتقطها راديو «عبد العزيز» «ماركوني»:

– نعم مِنْ حقهم الاهتمام بخليجنا، فموقعه المتميز، وسهولة الوصول إليه، وكونه الممر البحري السهل من ميناء «البصرة» حتى «بحر العرب»، ولا تنسى أن هناك مؤشرات على وجود خير كثير في أراضي «الخليج» و«الجزيرة». لقد سمعت مؤخرا في إذاعة «لندن» تقريرًا من شركة «الهند الشرقية»، تشير فيه إلى أهمية المنطقة العربية، وأن هناك توقعات شبه مؤكدة على أن التحليلات الجيولوجية أكدت على وجود النفط في المنطقة.

واعتدل «أبو محمد» الخمسيني، تاجر التمور، في جلسته على الدوشق الوثير، وقال:

- أخبار طيبة يا جماعة... (اللهم لك الحمد والشكر) منطقتنا منذ القدم أرض خيرٍ، وعطاء، من عهد الرسول (اللهم صلي وسلم عليه) والأرض تعطي خيرًا، وإذا صحت الأخبار، فمعنى هذا أن اكتشاف النفط في المستقبل سوف يحقق الكثير لأبناء المنطقة، وسوف تزدهر الحياة، كما ازدهرت، وتطورت في الدول المحظوظة باكتشاف النفط فيها، وإن شاء الله يطول عمرُنا ونلحق هذا الاكتشاف.

فردد الجميع:

- إن شاء الله إن شاء الله.

ثم قال «سيد تقي» تاجر العقار:

- تصدقون يا جماعة الخير أني كنت قبل شهور، وأنا جالسٌ في بيت واحد من معارفي، من أهل «الكاظمية» بـ«بغداد»، وكان حديثهم في ذلك الوقت عن اكتشاف النفط في حقول «كركوك» بشمال «العراق»، وأكد الخبراء الألمان على وجوده بكميات كبيرة جدًا، وأزيدكم من الشعر بيت؟! إن «إيران»، والتي سبق اكتشاف النفط فيها، نسبة كبيرة من حقول نفطها تقع على «الخليج»، وهذا يعني أن «الخليج» من الشرق، والغرب، والشمال، وحتى الجنوب خليج خير.

فقاطعه «سعد» وهو يحتسي الشاي بلذةٍ:

- وأنت الصادق، يصير مطمع الغير. وإلا ماذا تعني التعليقات، والأحاديث، والتحليلات التي نسمعها في الإذاعات كل ليلة، عن تعامل الدول الكبرى مع «الخليج»، انطلاقا من كونه منطقة إستراتيجية، ومهمة. بل إن بعضهم يشير بصراحة إلى كونه حقول نفط، يعني حقول ذهب، وفلوس، وجنيهات.

التفت إليه صاحبه «عبد العزيز»، وقال باسما:

- صح لسانك، لقد قلتَ الحقيقة، وإن شاء الله، حكام «الخليج» يَعون ذلك، وأبعد مِن ذلك، فأطماع الغرب في هذه الأرض الطيبة سوف تكون حافزًا على اهتمامهم بـ«الخليج»، وما يمتاز به من خصائص، وطبيعة شواطئه التي تزيد من سهولة إمكانيات عمليات إنزال قواتها، ومعداتها، فأنتم تعلمون أن شواطئ «الخليج» من «الكويت» حتى «عمان» مرورا بأرضنا الطيبة، و«قطر»، والدول المتصالحة، ودول «الخليج» عبارة عن ساحل منبسط لا يعرف التعرجات إضافةً إلى كونه بحيرةً صالحةً لإيواءِ السُفن، والأساطيل المحاربة، كما حصل في هذا الحرب الدائرة هذه الأيام – الحرب العالمية الأولى.

وأضاف «عبد العزيز»، وعلى شفتيه تساؤلٌ يبحث عن جواب:

– لاشك أن هناك تحدياتٍ كثيرةٍ، سوف تواجه خليجَنا الحبيب، متى وُجِد النفطُ في أراضيه، لا يعني خيرًا فقط وإنما شرًا أيضًا، هكذا هي الحياة، لكل شيء جانبٌ آخر، سلبي، وايجابي، وسوف تكون في خليجنا الحبيب فتراتٌ حرجةٌ، وهي موجودةٌ في مختلف المجتمعات، والأمم، والشعوب الكبيرة، والصغيرة، ولاشك أن هناك أزماتٍ، سوف تواكب اكتشاف النفط، وإنتاجه، وبيعه، ومثلَ هذه الأزمات، سوف تقود أحيانا إلى السقوط، والمعاناة، وفي أحيانٍ أخرى، تقود إلى الصعود، والنمو، والانطلاق، وخاصة عندما تتواجد قدراتٌ حاكمةٌ حكيمةٌ، تخاف اللهَ، وتسعى لمصالحِ شعوبها، فكثيرٌ من أزمات الدول، تحولت بفضل وعي القيادات إلى حالة من الوعي العالي، وكثافةٍ رُوحيةٍ، يتألق فيها أبناء الأمَّة، وهم يحملون حالةَ التحدي الحضاري، والإنساني، ضدَّ عوامل الضعف، والانكسار.

وفيما «عبد العزيز» مسترسلٌ في حديثة المبهر، الذي تجسَّد في تطلُّع كل العيون إليه، وهو يتحدث بوعي الرجل المثقف، والواعي، والذي اكتسب وعيَه وثقافتَه من دراسته في «الهند»، عندما رافق والده «عبد الرحمن»، قبل عقد، وأكثر من الزمن إلى مدينة «مومبي» للتجارة، والعلاج من حالة الحكَّة التي أصابته في جلده، وكاد من فرط حكِّه لجسمه أن يُمزِّقه بأظافره،

بان مشهد الدم النازف من جلده، ينضح أحيانًا من ثوبه الشفاف، ولولا الحياء لجلس عاريًا، يحُكُّ، ويحُكُّ مع أنه لجأ إلى استعمال مُخْتَلَف الأدوية المتوفرة لدي الأطباء الشعبيين، والعطارين، من دهانات، ومراهم، وحتى مروخ.

ورغم عنايته بنفسه عنايةً فائقةً، واهتمامه بنظافة جسمه، وثيابه، فلَمْ يستبعد إصابته بمرضٍ جلديٍ خطيرٍ، ولمَّا عرف من أحد معارفه من التجّار، أنَّ في «الهند» بعض الأطباء المشهورين بعلاج الأمراض الجلدية، لم يتردد في اتخاذ قرار السفر لـ«لهند» عن طريق ميناء «العقير»، ومن «البحرين» يسافر إلى هناك، وبعد تفكيرٍ، واستشارة بعض أفراد أسرته، قرَّر السفرَ بصحبة ابنه «عبد العزيز»، الذي كان في العاشرة من عمره في ذلك الوقت، يذكر الآن بصورةٍ جليةٍ كشريطٍ سينمائيٍ يشاهدُه.

عندما وصلتْ المركب إلى «مومبي»، بعد أسابيعَ مِن السفر، وبعد أن التقى «أبو عبد العزيز» ببعض مواطنيه المقيمين في هذه المدينة العريقة، الزاخرة بكل شيء، والذين يمارسون التجارة، وتصدير المنتجات الهندية إلى «الخليج»، ومن ضمن ذلك وطنه.

بعد يومين من وصوله، التقى بالطبيب المتخصص في الأمراض الجلديَّة، كان طويل القامة في عقده السادس وأكثر، بعد انتظارٍ لأكثرَ من ساعة،

ومع تدخُّل البعض من العاملين في عيادته المزدحمة بالمرضى، دخل «أبو عبد العزيز» عليه، وأخبره عن حالته من خلال ترجمة مواطنه التاجر المقيم في «موميي» «أبو فهد»، أخبره أنه أُصيبَ بهذا المرض المزعج منذ أكثرَ من عام.

بدايةً، أخبرهم الطبيبُ أنَّ الأمراض الجلدية تختلف عن الأمراض الأخرى في كونها تأخذ وقتا في العلاج، ومن الضروري أن تكون حالةُ المريض مستقرة في المكان، بمعنى يجب أن يتواجد في المدينة طوالَ الفترة التي يحددها له، وتتطلبها عملية المعالجة، وأولُ شيءٍ في هذه العملية، أن يصرف له دواءً يوقف عملية الحكَّة المستمرة، وبعدها يبحث عن السبب وراءَ هذه المشكلة، وشرع الطبيب يبحث عن أعراض المرض، ولكن دون جدوى، خصوصا والحكَّة التي يعاني منها «أبو عبد العزيز» تركتْ آثارًا واضحةً على جلدِ جسمه، ولما كانت الحكَّة واحدة من بين الأمراض التي تتكون من العديد من الأمراض الجلدية، مثل الإكزيما، والحساسية، والحزاز، ومرض أيوب، فقد تابع الطبيب عمليةَ الفحص، مستبعدًا الجربَ، ومركِّزًا على مختلف الأمراض، ولم تستغرق عملية الفحص يومًا، أو يومين، لكنها استغرقت أسابيع، الأمرَ الذي تطلَّب من «أبي عبد العزيز» استئجار شقةً صغيرةً، قريبةً من عيادة طبيبه، وبالصدفة كانت إلى جوار العيادة مدرسةٌ ابتدائيةٌ التحق فيها ابنه «عبد العزيز»، بتوجيهٍ، وتوصيةٍ من معارفه من

مواطنيه التجّار المقيمين في هذه المدينة، بل إن بعضهم قد تزوّج فتياتٍ هنديات، ولديهم أبناء يدرسون في هذه المدرسة.

استمر الطبيب يبحث عن أسباب مرض أبي «عبد العزيز» الجلدي الغريب، لكنه للأسف لم يكتشف حقيقةَ المرض، أو الوصول لنتيجةٍ مطمئنةٍ لحالته، رغم أنه يتابع حالتَه يوميًا بل إنه خصَّص له وقتا معينا يزوره في مسكنه، وعلى الأخص اكتشافه لما تسببه زيارته لعيادته من مشاكلَ نفسيةٍ، عندما يشاهد المئاتِ من المرضى المصابين بأورامٍ في أجسادهم، وجلودهم، أو الذين يعانون من حالات جذام، أو جَرَبٍ متقدمٍ، الذين انتشروا في مختلف غرف العيادة، حتى بعضهم كان يتمدد على الدَرَجِ من فرط الإعياء، أو في انتظار أملِ تكرُّم الطبيب بمعاينتهم من ضمن المرضى الخمسة الذين يعالجهم يوميًا مجانًا، لذلك تقرر أن يقوم الطبيب «جاكوب» بزيارته يوميًا وبعدها صارت الزيارةُ أسبوعيةً.

بعد متابعة دقيقةٍ لحالة أبي «عبد العزيز» المرضية، بدأ الطبيب يشعر بأن الحالة فريدةٌ، ونادرةٌ، وليست وليدةَ مرضٍ عضوي، إنما هي حالة نفسية، وكان بوسعه إخبارَه بأن علاجَه ليس في عيادته، إنما لدي أطباءَ النفس.

وإشفاقًا عليه، قرّرَ الطبيب أن يسير في الطريق إلى نهايته، مع أنه قام بتحويله لزملاء له متخصصين في الأمراض الباطنيّة، فربما يكون على

خطأ، فهناك أمراضٌ عضويةٌ تسبِّب الحكَّة، خاصة في الحالات المتقدمة، مثل أمراض السكَّر، والفشل الكلوي، وبعض أمراضِ الغدد، ومرض الصفراء، وغيرها، وجاءت النتيجة أن «أبا عبد العزيز» خالٍ من أيِّ مرضٍ عضوي باطني.

فكيف هذه الحكة المزعجة، والتي يريد أن يهرب منها بل من جِلده، حتى أنه في ليلةٍ كانوا يحتفلون بالعيد في بيت «أبي يوسف» تاجر الخشب، وراح صديقهم الهندي المسلم «يونس»، والذي يجيد العربية، ويعمل في سوق الأخشاب، يحدثهم عن قصة هروب بعض الجنود الإنجليز من مقاومة الهنود الشجاعة، فعلق «أبو عبد العزيز» ساخرا:

- تعتبر الهروب من مواجهة الموت شجاعة فكيف الحال بالذي يريد أن يهرب من جلده؟!

ضحك الجميع، عندها قال «أبو يوسف»:

- احمدْ ربك يا أخُ «عبد الرحمن»، أنت أفضل من غيرك، على الأقل بدأتْ تتحسنُ حالتُك، هل حالتُك الآن نفسها أولَ يومٍ وصلتَ فيه «الهند»؟

نظر إليه «عبد الرحمن» بعدما تراجع إلى الخلف مسندًا ظهرَه على وسادةٍ قطنيةٍ، فقال بعدما رفع يديه:

– اللهم لك الحمد.. الحمد لله.. والشكر.. من يوم الطبيب «جاكوب» أعطاني المسكن أقدرُ على الأقل أن أنام بدون حكَّة، وكل يوم يمضي أحسُّ أني أحسنُ، وأفضل من أول، لكن اللِّي شاغلني حتى اليوم، ورغم الشهور السبعة التي مضت، لم يكتشف الأطباء السبب الحقيقي وراء هذا المرض اللعين.

ونظر إليه الشيخ «خلفان» من أهالي «دُبَي»، والذي جاء قبل ثلاثة شهور لشراء بضاعة من الأقمشة لمتجره في ديرة «دبي»، وفي طريقه راجع الأطباءَ من ألمٍ، وانتفاخٍ في منطقة العانة:

– اللهّ يشفيك ويعافيك يا شيخ «عبد العزيز»، ما تستاهل. يا زين الصحة والعافية .. تُصدِّقون يا جماعة الخير أني قبل ما أُخضع للعملية، كنت في حالة صعبة، وزادها السفر في السفينة، وحركة البحر، وأمواجه العاتية التي ترفع السفينة إلى أعلى، وترجعها بقوة إلى أسفل، ومع الارتفاع، والحركة، كان الألم يتضاعف، لكن – اللهم لك الحمد – أشعر أني رجعت بعد العملية إلى أيام فتوتي، ونشاطي وحيويتي.

فقاطعه الشيخ «سعود» بخبث:

– قل لنا يا شيخ «خلفان» بصراحة، تقدر تطلع السطح؟

فأجابه، وابتسامةٌ كبيرة حركت شعرات لحيته:

– حرام عليك يا عم «سعود» سطح .. بس؟ قُلْ عمارة ولاَّ منارة، أقولك رجعت لزمن الفتوة؟

فدهش «يونس»، وقال باسمًا:

– إذا المسالةُ تحتاج لزواج؟ ترى يا عمي، إحنا في الخدمة، عندنا في «حيدر أباد» بنات كالأقمار، ينافسن شمس النهار، محتاجين الستر، ولقمة العيش، وتقدر تقول ببلاش، خصوصا من رجل مسلم، وجاي من أطهر مكان في الدنيا، حلم تتمناه كل فتاة مسلمة تبحث عن الستر، والأهم البركة من الزواج من أمثالك يا عم «خلفان».

نظرا إليه «خلفان» مليًّا، وقال، ويده المعروقة تداعب شعيرات لحيته الطويلة:

– أنت صادق يا «يونس»، ولا تمزح؟

فحرك «يونس» رأسه، ورقبته على الطريقة الهندية المعروفة، بل إنه وضع يديه معا، وراح يهزُّهما في محاولة تأكيد لما أشار إليه، وقال:

– ثق تماما يا عمي، عندكم مثلٌ في البلاد العربية يقول (الميدان يا حميدان).

وأضاف في ثقة واقتدار:

– جربني يا عمي وترى ما يرضيك، واللي تستاهل قوتك وفتوتك.

وأصغى إليه «عبد الرحمن» في شوقٍ، وقال مقاطعًا:

– واللي مثل حالتي.. يقدر يحصّل زوجة؟

فقال «يونس»:

– كل دانة ولها مكيال مثل ما يقولون أهل الدانات، وهنا فلوسك تشتري لك دانات من البنات، لا دانة واحدة يا عمي، والحمد لله ما فيك عيب... مريض، بكره الله يشفيك، أصلاً حتى عندما يتزوج الشاب ممكن، وبإرادة الله يمرض بمرض عضال لا شفاء منه، بل وهناك من يموت بعد زواجه موتة طبيعية؟

فقال الشيخ «سعود»:

– صدقت يا «يونس»، إرادة الله وراء كل شيءٍ في هذه الحياة، أنا شخصيًا حضرت قبل عشرين عاما، من أجل استيراد بعض مواد البناء، وصارت مشكلة في السفينة التي جئنا بها، مما اضطرتنا ظروف هذه المشكلة إلى الانتظار، ومنها تعرَّفت بتاجرٍ مسلم التقيت به خلال زيارتي لمدينة «أغرا»، لمشاهدة تاج محل، وكان بالصدفة مع أسرته، ومن بينهم زوجتي «أم صالح»، وكانت فتاةً صغيرةً، لكنه – وبتوفيقٍ من الله ولما لمسه مني من جدية وصدق – وافق على زواجي، بل وأسسنا معا مكتبًا

صغيرًا، تحوَّل مع الأيام لشركة لتصدير مواد البناء، وغيرها من المواد التي يحتاجها السوق في منطقة «الخليج»، بل – ولله الحمد – صار لنا وكلاء في «المنامة»، و«دبي»، و«الكويت»، و«الهفوف»، و«جدة»، ولقد طلبت من زوجتي المقيمة في البلاد الحضور للإقامة معي هنا، إلا أنها رفضت، وبعد عدة محاولات سفر لم تقتنع، طلقتها للأسف، وأحد أبنائي منها «عبد الوهاب»، أحضرته للدراسة هنا، وهو الآن في السنة الأخيرة الجامعية.

وأضاف:

– اطمئن يا أخ «عبد الرحمن»، مثل ما قال الولد «يونس»، لكل دانة مكيال، وأنا لا أُشجِّعك على الزواج، فهذا أمر يعود لك، ولكنني أحب أن أؤكد أن الزواج في «الهند» لا يشكِّل مشكلة أبدًا، وتكاليفه يسيرة، ومرضك ليس مشكلة أبدًا، خصوصًا – والحمد لله – بدأت حالتك تتحسن.

وراح يكمل حديثه بحكم، وأمثال، وقصص، عن حالات زواج ناجحة، للعديد من القادمين إلى «الهند» في مهمات عمل أو علاج، وبسرعة وبكل ما يملك من قدرة كلامية قال «عبد العزيز» غاضبًا مخاطبًا والده «عبد الرحمن»:

– إحنا جينا هنا للعلاج لا للزواج.

فأجابه والده منفعلاً وغاضبا :

– كلْ تبْن واسكت، ولما يتكلمون الكبار اللي مثلك «ينثبر».

وأضاف:

– ما بعد إلا أنت «يا لزعطوط» تقرر اللّي نعمله.

– أنا... أبوي قصدي خير... لاشيء... أعني... أنت بعافية الله يعافيك ويشفيك... وينك وين الزواج؟

وكاد يقول الذي في نفسه:

– حتى أنت يا المريض تبغي تتزوج؟

وفجأةً، رماه والده بالمروحة اليدوية التي في يده، لكن مِن حسن حظ ابنه مال برأسه عنها؛ فوقعت على كتف «يونس».

فقال «عبد العزيز» في نفسه (سبحان الله، أصابت من يستحقها.. هذا السمسار القذر، فمن أجل حفنة من الروبيات، يصطاد القادمين من ديرتنا، ولا يهمُّه ظلمه للفتيات الصغيرات اللواتي يزوجهن حتى للمرضى.. كلب أجرب هذا «اليونس».)

ضج المجلس بعبارات الحمد لله أنَّ المروحة اليدوية لم تصب عينَ «عبد العزيز»، وتحمَّدوا السلامة «ليونس» أن وَقْعَها على كتفه كان خفيفًا، وراحوا يعاتبون «عبد الرحمن» على انفعاله، وغضبه، ومصادرة رأي ابنه.

وانقضَتْ لحظاتٌ من الصمت، ثم سأل الشيخ «سعود» «عبد الرحمن»:

– هل تصرفك – يا «أبا عبد العزيز» – تصرفٌ غيرُ محمودٍ، ومقبولٍ من إنسان عاقل؟

وأجاب «عبد الرحمن» بدون تردد:

– لقد أثارني... لم أكن أتوقع أن يتدخل في أمر لا يعنيه، نتزوج ما نتزوج، هذا شيءٌ لا يخصه، ويَحمدُ ربَه كثيرًا أنني أحضرته معي ليرى الدنيا، وحضارة «الهند»... لقد منحتُه الفرصة للدراسة فيها، ومع هذا يحشر نفسه فيما لا يخصه؟! هذا شيءٌ أرفضه تمامًا، ولا أوافق عليه.

وأشار الشيخ «سعود» لـ«عبد العزيز» أن يقوم، ويقبل رأسَ والده، وأن يعتذر منه، والتمعت عينا «عبد العزيز»، وهو يتجه إلى حيث يجلس والده، وراح مقبلاً رأسه، ومعتذرًا، وومض في نفسه بريقٌ مخيف من المستقبل.

إذن والده يعتزم الزواج من هندية، سوف يكون له أخوةٌ من زوجة والده القادمة، أخوة من أمٍ هندية، سوف ينظر أهل «الفريج» لهم بنظرة فيها شيء من النقص، بل وربما أثّر ذلك في زواج بعضهم، إنه يعرف تمامًا تقاليد، وعادات الأُسَر في مدينته، بل في البلاد كلها، إنها ترفض الزواج من خارج الشجرة الأصيلة المتجذرة، أكانت هذه الشجرة شجرتهم أم أيَّ شجرةٍ أصيلةٍ أخرى؟ فكيف الحال عندما تختلط أوراق هذه الشجرة

بأوراق شجرةٍ أخرى؟ هل معقولٌ أنْ تعانق أوراق شجرة الليمون أوراق شجرة السدر، نعم سوف يكون له إخوةٌ جدد يشاركونه، وإخوته، وأخواته خير والده الكثير، وها هي المؤشرات تتكشف أمامه.

هل يا ترى جلوس والده، وغيابه عن والدته طوال الشهور الماضية، حرَّك داخل والده الغريزة، والرغبة الجنسية؟ وهل نظراته الطويلة، والعميقة للممرضة «سارينا» الكشميرية الحسناء في عيادة طبيبه «جاكوب» تعني شيئا في نفس «يعقوب»؟ وهل حرصه على تقديمه لها خمسة أمتارٍ من أغلى الأقمشة الحريرية بمناسبة العيد تعبيرًا عن تقديره لعنايتها، واهتمامها به طوال الشهور الماضية خلال مراجعته العيادة؟ أم أن وراء ذلك شيئًا أخرَ؟ شيءٌ يعرفه الرجال فقط، ويحس به الرجال فقط، كما قال له زميله، وصديقه الحضرمي «أبو بكر»، والذي يدرس معه في المدرسة، والذي يكْبُرُه بعامٍ فقط كما يقول، ويمتاز بمعرفته بكثيرٍ من الأمور الحياتية، التي تعلمها من والده «علي» المزواج، حتى إنَّه قال له ذات مرةٍ إنه يستطيع أن يعرف من نظرات الرجل، إذا كان رجلاً جنسيًا، أو شاذًا، أو حتى رجلاً عاديًا لا يهشُّ ولا ينشُّ.

فعندما سأله عن الكيفية التي يعرف بها هذه الأشياء التي تعتبر خطيرة، ولا يعرفها السَحَرَة، والمشعوذين، أجابه باستغراب: (كأنك لست من الجزيرة ولا تتجذر من قبيلة... إحنا أبناء القبائل العرب القحاح الأصل، والفصل،

نتعلم هذه الأشياء بالفراسة، خُذْ مثلاً أبناء «آل مرة» في منطقة «الإحساء» الشهيرة لديهم معرفة بأسرار «الأثر»، وهناك منهم من يعرف ومن آثار أقدام الجمال، أو الرجال إذا كانت هذه الناقة حامل، أو تسير بخطوات سريعة، أو هذه الخطوات للص، أو لامرأة، أو فتاة، وهكذا.

لقد ضحك كثيرًا، وهو يسخر منِّي لجهلي ببعض الأمور، بل كاد يقولها صريحة، بأنني جاهل في تاريخ العرب، وما يمتازون به من صفاتٍ عظيمةٍ، سجَّلها التاريخ، حتى إنه قال له ذات ليلةٍ، وهما يسيران بجوار الشاطئ إنه يعرف متى ما تكون إحدى زوجات والده الثلاث سعيدةً، يتطاير الفرح من عينيها، ومتى تكون عكس ذلك، بل قال له بثقة إن زوجات والده يتسابقن على إرضائه بصورةٍ لافتة، وأضاف، وهو يضغط على يده النحيلة:

- يبدو أن الوالد يعرف كيف يرضي النساء.

فسأله على استحياءٍ:

- إلاَّ على فكرة، الوالدة... ما فكرت تجيء «الهند»؟

فقال له:

- جاءت قبل خمس سنوات، و لم تعجبها الحياة هنا تقول جو «بومبي» لا يناسبها، ولا تقدر أنْ تعيش بعيدًا عن جو البلاد، ورجعت مع أخي

«صالح»، وحسب الرسائل التي تصلنا مع بعض المسافرين، لا تفكر في العودة مطلقًا، بل وتطلب منّي العودة سريعًا، عندما أنتهي من دراستي، بل ومرة كتبتْ تقول – ويبدو أن الذي كتب الرسالة لها ميتٌ من الغيرة كونَ الوالد متزوجًا من ثلاث زوجات هنديات، وصغيرات في السنِّ – تقول: (يا «أبا بكر» تعال البلاد حال الانتهاء من الدراسة، أنا خايفة جدًا عليك من بنات «الهند»، وخايفة أكثر يكون مصيرك مصير أبوك، الذي نسى بلاده، وأهله، وغيَّرَ جلده، وصار يرطُنُ هندي وإنجليزي، ولا تنسى يا ولدي أن تقرأ سورة ياسين، والمعوذتين دائما، وتنفخهم في صدرك، خايفة يا ولدي عليك من سحر «الهند»، وبنات «الهند»)، ومن أجل ذلك حرصت على لبْس «جامعة» طوال اليوم، ولا أنزعها إلا عند دخول الحمام –أعزك الله– تحقيقًا لطلبها، وخوفًا مما زرعته في نفسي من رعبٍ من سحر «الهند».

قال له «عبد العزيز»، وهو يشعر بالأسى، والحزن الشديدين، وهما يشاهدان عشرات من الأُسَر الفقيرة، الذين يعيشون على الرصيف.. مشاهد بؤسٍ عظيمة.. أغطيةٌ باليةٌ، ستائرُ ممزقةٌ من الكرتون، وبقايا الأخشاب، شريطٌ مِن المآسي، التي تُحفر في الذاكرة صورًا حزينةً باصمت.ي صمت.

– المثل يقول: (المحتاج ابن عم الكلب)، كيف ما يمارس البعض السحر، وهم يشاهدون مثل هذه الصور البائسة؟ ملايين من البشر يعيشون على

هامش الحياة؟ والذي لا يموت من الجوع فهو يموت من أمراض الفقر، وما أكثرها في هذا البلد الغريب!

فقاطعه «أبو بكر»:

– أنا معك أن المحتاج مثل ما قال المثل لكن هذا لا يبرر السحر؟

وقبل أنْ يكمل كلماته إذا بامرأة تستوقفهم بثيابها البالية، وجسدها النحيل الذي تحول إلى ما يشبه الهيكل العظمي، وتخرج أحد ثدييها، وإذا بالدود يلعب داخله، نعم، دود والله العظيم لقد رأيته يتحرك، ولولا أن «أبا بكر» أمسكني لسقطت على الأرض مغشيا على من هول ما شاهدته، لقد أمضى شهورًا عديدةً في هذه المدينة العجيبة، وشاهد مئاتِ المناظر الحزينة للمرضى المجذومين الذين فقدوا أطرافهم، وتشوهت وجوههم، بل وشاهد العديد من الناس موتى في الشوارع، نتيجةً للجوع، أو الأمراض، لكن لم يشاهد مثل هذا المشهد المأساوي، دودٌ يتحرك في جسد امرأةٍ، ومع هذا لديها القدرة، والعزم الشديدين للوقوف، والحركة، وطلب السؤال!

تماسك، وأخرج ما في جيبه من نقودٍ، ووضعها في يد المتسولة البائسة، ولم يتمالك نفسه، وذهب إلى فسحةٍ بين إحدى الأشجار، وراح يتقيأُ ما في جوفه، فلم تستطع نفسه تحمل المشهد، بل وكان تأثير ذلك واضحًا عليه،

فشعر بالإعياء، والتعب بعدما تكرر تقيؤه، وسارع صديقه «أبو بكر» باحثًا عن ماء؛ ليسقيه؛ وليرد له روعه، وبعد جهد، وَجَدَ أحد الحوانيت البسيطة، وأخذ منها جرةً صغيرةً، وركض في اتجاه صاحبه، ناوله الجرة، غسل فمه، وشرب منها، وقال «أبو بكر» ساخرًا:

– معقولة يا «أبا عبد الرحمن»، يهزك مشهد مثل هذا، صحيح أنَّ قلبك ضعيف! لابد تكون رجل، هنا في هذه المدينة سوف ترى العجب، أشياء لا تصدق، ناس تمشي على الحبال، ناس تُدخِل في أجسامها أسياخ الحديد، وناس تأكل العقارب السامة مثلما نأكل إحنا الجراد، هنا – يا حبيبي – عالم عجيب، وغريب، سوف ترى أشياء قد تتصورها نوعًا من السحر، مثل ما حصل مع الوالدة (الله يذكرها بالخير). لقد شاهدَتْ واحدًا واقفًا على حبلٍ طول اليوم، ومن يومها وهي تقول: (الواحد ما يستطيع يوقف على الأرض أكثر من ساعة وهذا واقف طول اليوم في الشارع على حبل، معقولة!؟ لابد أن وراء ذلك سحرًا مبينًا.

ونظر إليه وهو يستمع لحديثه المدهش عن بلاد الدهشة، والعجائب، نظر إليه بتعجّبٍ، وأحس كأن غشاوة قد اختفت من أمام عينيه، وقال:

– من بكره لابد من «جامعة» مثلك، بصراحة والدتك معها حق، هذه بلاد فيها شيء من السحر.

فردد «أبو بكر» في نفسه (لم ترَ سحر البلد بعد يا صديقي).

أمضيا وقتا ممتعًا، كان القمر في ليلته الرابعة عشرة، والسماء صافيةٌ قال «عبد العزيز» لصاحبه:

— ما شاء الله انظر لضوء القمر كيف يغمر كل شيء؟! وانظر إلى أشعته المنعكسة على سطح ماء البحر وأمواجه تتلاعب بها، المدينة جميلة لولا مشاهد الفقراء، والبؤساء، والرطوبة الخانقة أحيانًا، وحرُّها الكريه.

تطلع إليه «أبو بكر»، وهو يفتح زر قميصه الذي بات مبللاً بالعرق:

— ليس هناك شيءٌ كاملٌ في هذه الحياة، الله أعطى هذه المدينة الموقع الممتاز، فباتت ميناءً هامًا في شرق آسيا، تقصده مختلف السفن، المتجهة إلى العديد من الدول، لقد أصبحت مدينةً يقصدها الجميع، ونقطةَ عبورٍ، وتواصل، بل وحتى مركزا تجاريًا هامًا... لم أُصدِّق والدي عندما قال لي مرةً إنها سحرته بما فيها من إغراءات، وكدت أقول له ما سحرك إلا نساؤها الجميلات، هذه هي نقطة ضعفك.

وأضاف «أبو بكر»:

— أنت إلى الآن لم ترَ، هناك عوالم أخرى لم تعرفها بعد، حتى أنا المولود فيها لا أعرف كل مناطقها، وشوارعها، وذلك لأسباب عديدة منها خطورة الذهاب لوحدي لأماكن بعيدة عن المنطقة التي أعيش فيها،

فاللصوص، والحرامية، والعصابات، منتشرةٌ في كل مكان، إنَّ حدود تحركي هو هذا الشارع، ومنطقة الميناء، وجانب من سوق المدينة القريبة من المدرسة، وبيتنا، وفي حالة وجود أمرٍ يتطلب ذهابي إلى منطقة أخرى، أذهب مع أحد صبية الوالد، ومع أنَّ لا أحد يكتشف أنني عربي الأصل فمع مرور الأيام والسنوات اكتسبت بشرتي لون البشرة المحلية السائدة هنا، ولو أقول لك شيئا ربما تضحك مني، قبل ثلاث سنوات، جاء تاجرٌ من جدة، وكان وكيلاً لوالدي في الحجاز، وكنا جميعا على مائدة الطعام، عندما التفت لوالدي وهو يقول: (كيف تسمح للصبيان يجلسون معنا على المائدة)، قال ذلك وهو لا يعلم أنني أعرف العربية، ولكن القميص، والإزار، والشكل العام جعله يتصور أنني أحد صبيان الوالد.

فقال له «عبد العزيز»:

– تصدق حتى أنا تصورت ذلك أول يوم تعرفت عليك فيه.

وضحكا معا، ثم قال «عبد العزيز»:

– إذا كان باقي عندك فلوس دعنا نشتري عصير تمر هندي، أشعر بالعطش.

راحت يد «أبي بكر» اليمنى تبحث في جيب قميصه عن بقايا نقود، لم يجد، فجأةً تذكر أنه يخفي قطعةً نقديةً صغيرةً في طيات إزاره، فوق بطنه، وقف عن السير، اقترب من حائط أحد الحوانيت، وراح يتحسس طيات الإزار، ابتسم في سعادة عندما عثر عليها.

قال «عبد العزيز»:

– شاطر يا «أبا بكر».. ذكرتني بحرص التجار خصوصًا جماعتكم الحضارم، دائمًا عندهم احتياط مالي.

قال «أبو بكر»:

– في هذا عندك حق... ليس في التجارة فقط، وإنما في مختلف جوانب الحياة، وعلى وجه الخصوص النساء، ما أن يصبح الواحد منهم أحواله جيدة حتى يركض، ويتزوج ثانية، وإذا كانت قدراته الأخرى ممتازة – ما شاء الله – مثل الوالد تزوج أربعًا.

فقال «عبد العزيز»:

– وأنت ماذا في نيتك، تسير في نفس طريق الوالد، وتؤكد المثل الذي يقول: (هذا الابن من ذاك الأسد)؟ وتتزوج أكثر من زوجة؟

– المستقبل مثل الغيب، علمه عند الله.

قالها «أبو بكر»، وأضاف:

- رغم أنني سألت مرة أحد المشعوذين، والذي تصادف، وجوده بجوار سوق الخضار، قال إنني سوف أتزوج زوجتين إحداهما هندية.

وبينما هما يتبادلان الحديث فيما يخبئه المستقبل لهما من أمور، وأسرار، إذا بالسماء تمطر مطرًا غزيرًا، وبسرعة، احتميا تحت مظلة إحدى البنايات، وأدار «عبد العزيز» عنقه حوله ليجد أنهما ليسا وحدهما، فمئات المارة الذين فاجأهم المطر، ولا يحملون في أيديهم المظلات اليدوية فعلوا نفس الشيء، فأجساد عديدة تلاصقت تحت سقف هذه البناية، لحظة أحس بجسد ناعم رقيق يلتصق بجسده، التفت إلى جانبه، فإذا بها فتاة في عمره، بيضاء البشرة، تلف جسدها الملفوف القوام بساري لونه عنابي، بدتْ فيه كنجمةٍ مضيئة، في ليلٍ بهيم، هذه أول مرة يلتصق جسده بجسم أنثى ليست حلال عليه.

شعر برعشةٍ خفيفة، وشعورٍ لذيذ، يسري في جسده، وراح يدعوا الله مخلصًا في نفسه أنْ يطول سقوطُ المطر الغزير، وتستمر هذه اللذة الغريبة، التي اكتسحت كيانه، وحركت أشياء غامضة داخله، بعد ترددٍ، نظر إليها، فإذا هي جميلة جدًا، شعرت بنظراته الحادة، رغم صخب الواقفين، وحركة عربات الخيول، ووقع أقدامها على الشارع، وصوت خرير مياه المرازيب المندفعة من سطوح البنايات المجاورة، فهو يكاد يحسُّ بأنفاسها،

حتى شعرها الناعم الطويل المشبّع بدهن النارجيل، رائحته المميزة تسافر داخل أنفه، خفضت نظراتها عندما تلاقت عيناهما، وراحت تنظر إلى الشارع الذي يتساقط عليه المطر، ناشرًا ذرات مياهِهِ في كل الاتجاهات، في تلك الأثناء قال له «أبو بكر»:

– حظّك زين... الزين جنبك.

أجابه بعربية:

– هو بس زين؟! أنا ما ألوم الوالد لو تزوج واحدة مثلها، وأبوك معذور إذا تزوج هنا أكثر من زوجة، سبحان الله، فيه جمال بهذا الشكل؟

قال «أبو بكر»:

– ألم أقل لك من قليل إنك لم ترَ شيئًا بعد؟

فأجابه:

– هذه أول مرة يلتصق جسمي بفتاةٍ غريبة عنّي، وليست حلالاً عليَّ، وبيني وبينك أحسُّ داخلي بلذة، ورغبة لا أعرف سببها، وأخجل أن أعبر عنها بصورةٍ مباشرةٍ.

يتزايد المطر، البرق والرعد يثيران الدهشة، وتنحبس الأنفاس، يزداد التصاق الفتاة الجميلة بجسده، كأنها تحتمي به، تلجأ إليه، ضوء البرق المثير، والمنير، كضوء عينيها الساحرتين، إنه الآن اكتشف المعجزة الهندية،

مَن ذا الذي يقاوم مثل هذا الجمال الأسطوري، الذي قرأ عنه في قصص، وكتب الحكايات في مكتبة المدرسة، وكيف سلب جمال بنات «الهند» عقول، وقلوب سلاطينها، ومهراجاتها، وكيف خلَّد البعض منهم حبهم لزوجاتهم في قصورٍ، وأثارٍ فريدة مدهشة سجَّلها التاريخ، وتوارث الآباءُ عن الأجداد قصصهم، وحكاياتهم المثيرة، والمدهشة.

وليس هذا وحسب، بل إن ملايين البشر تزوجوا من «الهند»... عرب، وأوربيين، وصينيين، وغيرهم الكثير، جاء زواجهم نتيجةً لوقوعهم لسحرٍ مثل هذا الجمال الآسر، وقبل هذا لإرادة الله الذي جعل الشعوب تتعارف، وتتآلف، وتمتزج في حب مكونين أسرٍ بدماءٍ مختلطة.

ها هو الآن، وجها لوجه مع الجمال الهندي الأصيل، تمنّى لو كانت لغته الهندية قوية، فهو ورغم مرور سبعة شهور من الإقامة المستمرة في هذه المدينة، لم يستوعب اللغة بصورة دقيقة كما هي حال صاحبه «أبي بكر».

ومَن يضمن أنها تتكلم اللغة التي يعرفها، فهنا عشرات اللهجات العجيبة، والتي حتى أبناء «الهند» أنفسهم لا يعرفونها.

بل إن «يونس» هذا الإنسان المسلم المرتزق، والذي جاء من أقصى مدينة «حيدر أباد»، وهو طفل صغير، باحثًا عن فرصة للحياة في هذه المدينة

المدهشة، والتي باتت العاصمة المالية «للهند»، ومنذ قرون، يقول إن المدينة يلتصق بشوارعها، وأزقتها مئات العائلات، القادمة من مختلف مدن «الهند» باحثين عن فرصة للحياة، ولا يهمُّ نوعُ هذه الحياة، أكانت حياة كريمة أم حياة بائسة؟ تجسّدها الآلاف مِن الأُسَر التي تعيش، وتتناسل فوق أرصفة شوارعها المبللة دائمًا بالمطر، والذي يستمر هطوله أحيانًا لعدة أيامٍ، هذه هي الحياة هنا في مدينة الغِنَى، والفقر معًا، وجهان متناقضان لعملةٍ واحدة هي «مومبي»، والتي كانت فيما مضى تدعى «بومبي».

واجهنا جميعًا وابل المطر المستمر، وكانت رياحه بدأت تشتد، وتصل إلينا، ونحن في انتظار المجهول، الرياح بدأَتْ تحرِّك شعر الفتاة الحسناء، خصلة من شعرها المبعثر رغم أنه في ضفيرتين طويلتين، إلا أن للرياح حكمة في تلك اللحظة، بدأ منسوب المياه في الشارع يرتفع بصورة واضحة.

مرةً ذكر الشيخ «سعود» أن المدينة شهدت قبل عقود عاصفةً ممطرةً استمرتْ لعدة أيام أغرقتَ الشوارع بصورةٍ لافتة، بل إنها حطَّمت البيوت، والأكواخ الخشبية، واقتلعت أشجار جوز الهند.. لقد عاشت المدينة تلك الأيام أسوأ أيامها على الإطلاق.

رجل ضئيل كان يقف خلفي، ويدخن بشراهة، رائحة دخانه تكاد تخنقني، ورائحة الفتاة الممتزجة برائحة المطر، والرطوبة، وقماش الساري، تشكل

مزيجا عجيبا من الرائحة التي لا يمكن أن ينساها الإنسان، الأنظار تتطلع في كل أنحاء الشارع بلا معنىً، أو هدف، أحاسيسُ مختلطة، صراعات نفسية، أفكار خبيثة، آمال، تطلعات، الأمل في غد أفضل، لو كنت أستطيع أن أعرف فيما تفكر فيه هذه الفتاة الحسناء، تمنيت لو كنت أعرف اللغة بعمق معرفة «أبي بكر» لتحدثت إليها، على الأقل أُشعِرها بأنها صورة رائعة لهذه الأرض العجيبة، صخب، وجلبة تحرِّكها أعداد الناس الواقفين في انتظار توقف المطر، ويبدو أنَّ «أبا بكر» ضاق بهذا الصخب المزعج؛ فقال:

- إلى متى ننتظر هنا، قد يستمر المطر إلى الصباح، أم إنك سعيد بوجودك بجانب هذه الفتاة، كأنك ما شفت خير!

قلت:

- له لقد شفت الكثير، ومنذ أول يوم وطئت قدماي هذه الأرض، إلا أنني لم أجد مثل جمال هذه الفتاة، صدقني... أتمنى لو يستمر المطر، وأستمر واقفًا إلى جوارها إلى الأبد.

وانفلتت منه ضحكةٌ خبيثة، أثارت نظر الرجل الهندوسي الواقف خلفنا، وراح يبتسم في امتعاضٍ، وهو لا يعرف سببًا لضحك «أبي بكر».

ثم قال:

- خذها نصيحةً منّي، إذا تركت لعيونك، وقلبك الحرية في الإعجاب، والخفقان فسوف تتعبهما سريعًا، هنا مئات الملايين من البشر، ومئات من الملايين من الجميلات، والحسناوات الأسطوريات، والحوريات، جميعهنَّ يُرِدْنَ أن يَعِشْنَ في سلام.

وبحركة ربما كانت مقصودةً، اقترب من خلفي أحدهم، وراح يلتصق بي أكثر، متطلعًا، ومحملقًا في وجهي المتعب من فرط الوقوف، وهو يمزمز شفتيه بطريقة مقززة.

لاحظ ذلك «أبو بكر»، وقال:

- ألم تشعر بالرجل اللوطي خلفك، أم أنك تحب الالتصاق أيضًا بفتاتك.

أجابه «عبد العزيز»:

- لنذهب من هذا المكان، مادام فيه مثل هذا الحيوان.

وقال «أبو بكر»:

- احمد ربك، جاءت سليمة هذه المرة، ولم يفعل هذا اللوطي إلا الالتصاق، والاقتراب منك، وهناك من يفعل أكثر من ذلك.

قال له بخوفٍ:

- كيف يعني؟

فأجابه باسمًا:

- ألست في بلد السحر، ربما وضع عليك مادة ما تجعلك تركض وراءه، وتبحث عنه في كل مكان.

ردَّد «عبد العزيز» في ضعف، ووجل:

- الحمد لله.. الحمد لله .. الله خلصنا منه.

وبنظرة حزينة، تطلع إليها، وعيون الجميع تدور في المحاجر، وهو وصاحبه يغادران المكان، ونظرات ذلك الرجل اللوطي الشاذ، تتابعهما في توسل، وغضب ينفجر في نظراته المتلاحقة، وفتاته الحسناء مشغولة بترتيب وضع ساريها على كتفها الجميل.

حرَّك قدميه فشعر بتعب السير لفترة طويلة، بدأ المطر يتوقف، ما أوسع الفرق بين المطر في مدينته الصغيرة، وهذه المدينة الساحرة، طرق مدينته الترابية، وكيف تتحول إلى طرق موحلة، وطينية متعبة للمارة؟ فرق كبير بين طرق هذه المدينة المرصوفة بالأحجار، وطرق مدينته الصغيرة ذات الطرق المتربة.

سار «أبو بكر»، و«عبد العزيز» جنبًا إلى جنبٍ، وراحا يتحدثان عن ما تخفيه هذه المدينة من أسرار، وساد الصمت بينهما لحظات، وهما يسيران في شارع «السوق» المزدحم بالناس، وضجيج العربات، وجلبة عربات الركشا الشهيرة، والتي يجرُّها الرجال، وكلاهما كان، لا يسمع من هذه الضجة إلا الشيء البسيط، كأنها صادرة من منطقة بعيدة عنهما، كان كلاهما مشغولاً بالتفكير فيما سوف يقوم به غدا من عمل، «عبد العزيز» راح يفكر في جمال تلك الفتاة، ولون بشرتها الرائع، ورغبة والده في الزواج من جديد بفتاةٍ هندية، تُرى هل يفعلها والده، ويتزوج من جديد؟ وهل تسوق له الأقدار فتاةً جميلة مثل فتاة المطر؟... من يدري، قد يكون الحظ حليفه، وأنَّ الأقدار ساقته للحضور إلى هنا؛ ليتزوج إحدى بنات «الهند» الحسناوات، وما أكثرهن في زمن الجوع، والحاجة، والفقر.

أما «أبو بكر» فقد كان تفكيره في كيفية الحصول على المال، إنه يريد أن يبدأ – مثل والده – في التجارة مبكرًا، (فالله بارك في البكور في كل شيء) هكذا كان يردد عليه والده دائما، ولكنه يريد أن يمارس عملاً جديدًا، لم يسبقه إليه أحد على الأقل في البداية، لأنه يعرف أن الكثير من الناس ينتظرون الفكرة الجديدة، ويبدؤون في تقليد نشاطها على الفور، فعندما بدأ والده في تصدير الأقمشة الهندية «لمسقط»، و«عدن» قبل سنوات، سارع البعض من أصحاب المال، والذين ليس لهم خبرة، أو معرفة

بتجارة الأقمشة، الحضور إلى «الهند» وممارسة نفس نشاط والده، وما هي إلا شهورٌ قليلة، وإذا بأسواق «عدن» تزدحم بتجار الأقمشة، وحتى التوابل الهندية، إنه يريد عملاً جديدًا، لا يشاركه في نشاطه أحد، على الأقل السنوات الأولى، لقد تعب، وصاحبه، وهما يتجولان في شوارع هذه المدينة الكبيرة المزدحمة، بحثًا عن نشاط جديد، لقد قرأ المئات من لوحات المحلات، والحوانيت، والمتاجر... لا أفكار جديدة، إنه يريد فكرةً لنشاطٍ جديدٍ، ولا يكلّف الكثير، فالمبلغ الذي سوف يقترضه من والده ليس كبيرًا.

وكان يعرف بينه، وبين نفسه أنه مقبلٌ على متاعب، وصعوبات كثيرة، فطريق التجارة – كما علم من والده، وأصحابه من التجار أبناء «حضرموت»، وحتى «الجزيرة»، والتجار المحليين – ليس سهلاً، ويجب أن يتوقع دائمًا الخسارة قبل الربح، خصوصًا في هذا الزمن الصعب، والمرحلة الحرجة، التي يمرُّ بها «الخليج»، و«الجزيرة»، فأطماع الإنجليز، ورغبتهم في السيطرة على العديد من الدول، والمواجهات التي بدأت تظهر على سطح أيام «الهند» بعد المواجهات الدامية التي حدثت بين القوات البريطانية، وبين تجمعات الهندوس، عندما فتحت القوات النار عليهم، وقتلت حوالي ٤٠٠ شخص أثناء تجمعهم.

كان «أبو بكر» يحاول أن يجعل تفكيره في العمل بعيدًا عنه، خصوصا في هذه اللحظات التي يسير مع صديقه «عبد العزيز»، وكانت أفكاره تذهب بين فترة، وأخرى إلى أمّه في البلاد، ويتصور حالتها بعيدًا عنه، وخوفها المتكرر أن يتبع خطى والده في سلوكه، وحتى في عشقه للنساء.

كان «أبو بكر» حائرًا بين هذا، وذاك، وهو يتطلع إلى واجهات المحلات، وصاحبه «عبد العزيز» مازال قلبه، وتفكيره مشغولاً في فتاة المطر، ورغبة والده، وكان اقتناعه بما سمعه من والده ابتدأ يتأرجح بين الشك، واليقين.

وراحت علامات الاستفهام الكبيرة تلوب حول نفسه، وتساؤلاتٌ أخرى تبحث عن جواب، ماذا سيفعل لو تزوج والده الشهرَ القادم، كما قال له اليومَ «يونس» عندما صادفه في طريق الميناء؟ إنه وجد أكثر من فتاة لوالده، ومِن المفروض أن تحضر الفتيات من «حيدر أباد» بعد عدة أسابيع؛ ليشادهم والده، ويختار منهم الزوجة التي يراها مناسبة، لقد شعر بضيق كبير من هذا «اليونس» الحقير... المرتزق... صياد الكبار، والعجائز، وحتى المرضى.

وأخيرًا قطع «أبو بكر» حبل الصمت، وتطلع إلى «عبد العزيز»، وقال وهو يمسك بيده النحيلة الرطبة من تأثير الحرارة والرطوبة اللزجة:

– لابد أن احدد نوعية العمل، ساعدني يا «عبد العزيز»، لقد تعبت من التفكير، وتعبت من التجوُّل، حتى أنت تعبت معي.

وسأله «عبد العزيز» متعجبًا:

– ما هو العمل الذي يجب عليك تحديده؟ المدينة مثل ما هي مليئة بالناس هي أيضًا مليئة بالعمل، أذكر أن أستاذ الإنجليزية مستر «جيفن» قال مرةً: (من الأفضل للإنسان أن يختار العمل الذي يجيده أو يحبه... فعندها سوف يبدع فيه).

نظر إليه «أبو بكر»، وقال:

– هذه هي المشكلة، أشياء كثيرة أحبها... تجارة الأقمشة، الأخشاب، التوابل، المجوهرات، والذهب.

وابتسم «عبد العزيز»، وقال:

– جميع هذه الأنشطة، والمجالات ممتازة، ومطلوبة في مختلف مدن العالم، لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل المبلغ الذي سوف يقرضك إياه والدك يغطي التجارة في المجال الذي تختاره؟ خصوصًا، وهناك من سبقك إلى ممارسة نفس النشاط.

– نعم . نعم

كرَّرها أكثر من مرة «أبو بكر»، وهو يقول:

– هنا المشكلة التي أرهقت تفكيري، لم يترك التجار نشاطًا إلا ومارسوه بالملايين، الشباب أمثالنا الفرص أمامهم صعبة، وغير يسيرة.

ولكن «عبد العزيز» قاطعه بثقة قائلاً:

– لا تنسَ أن والدك بدأ تجارته وعمله في عمرك، وبدون أن يساعده أحد، المهم أنه بدأ، إذا كنت مترددًا، أو خائفًا، فأنا مستعد أشاركك، فوالدي بإمكانه أيضًا أن يساعدني.

ألقى عليه صاحبه «أبو بكر» نظرةً دقيقةً، وقال:

– إذا كنت صادقًا في رغبتك بالمشاركة معي.. فهذه فكرة رائعة، تحتاج منا إلى أن نجلس داخل أحد المقاهي، ونستريح من تعب هذه الجولة الطويلة، ونشرب الشاي، ونناقش الفكرة من مختلف الجوانب.

أجابه «عبد العزيز»:

– وهو كذلك.

فتنهد «أبو بكر» تنهيدةً قويةً، وهو يشعر بسعادةٍ بالغةٍ لدعوة صاحبه «عبد العزيز» لمشاركته العمل في مشروعه التجاري، ثم أخذ يده في تقدير، وإكبار، ودخلا المقهى، فسار الاثنان بين زحام المئات من رواده الكثر، كان المقهى بسيطًا، تزدان جدرانه باللوحات التي تسجل أساطير

«الهند» القديمة، إضافة إلى إطلالته على الشاطئ، ويتميز مدخله بمجموعة رائعة من الزخارف، والمجسمات التي حفرت على أعمدته نقوشًا تمثل معابد هندوسية، وبوذية، وحتى جوامع إسلامية، كان السُلَّم وحده يجسد وحدة «الهند» الغريبة المدهشة، ففي هذا البلد قمة التناقضات المثيرة للدهشة، والتساؤلات، كانت مجموعة كبيرة من رواد المقهى يتحلَّقون حول الراديو الخشبي العتيق، والأنيق، وكانت وجوههم مثقلة بهمومهم وتعبهم، والحيرة مما يذيعه الراديو من أخبار، وعلى وجه الأخصِّ أخبار النزاع بين«رجال المقاومة، وعسكر الإنجليز».

اختارا طاولة بجوار النافذة المطلة على الشارع المزدحم بالناس، والعربات، كان «عبد العزيز» قبل قدومه إلى هنا في هذه المدينة العجيبة، يعلم شيئًا بسيطًا عن «الهند»، من خلال حديث بعض أصحاب والده، عندما يتبادلون الأحاديث عن تجارة أخشاب الكندل، والحبال، والتوابل، وكانت معرفته عن هذه المدينة مبهمة، وضعيفة، وفيها الكثير من الغموض، أما بعد الإقامة فيها، وبعد شهور، فكل يوم يكتشف الكثير من المفاجآت، والمعلومات، والأسرار،لقد سمع قبل يومين في مجلس الشيخ «سعود» أن أحد تجار المجوهرات في «دبي» جاء؛ لشراء بعض المجوهرات، والذهب «فالهند» – ومنذ القدم – مصدر هام لأغلى أنواع المجوهرات، والأحجار الكريمة.

تذكر ذلك وهو يشاهد إحدى اللوحات الزيتية التي تجسد أحد أثرياء الهندوس، وهو يحمل على صدره مجموعةً كبيرةً من المجوهرات المختلفة، أبدع الفنان في رسم اللوحة بصورة دقيقة، حتى كادت فصوص الأحجار الكريمة تشع بريقا من اللوحة.

قال «أبو بكر» متعجبا:

- يبدو أن اللوحة أعجبتك..؟

أجابه:

- بصراحة، نعم. تكاد اللوحة تنطق، ما شاء الله، لقد أبدع الفنان في رسمها، لكن ألا تلاحظ يا أخي أن الهندوس لديهم اهتمام كبير باقتناء المجوهرات، كنت أتصور أن السلاطين المسلمين هم من يقدر المجوهرات، والأحجار الكريمة، لكن هذه اللوحة توضح صورة أخرى عن الهندوس، انظر إلى القلادة الذهبية الكبيرة المرصعة بالأحجار الكريمة... الياقوت، والزبرجد، وفصوص الألماس، والزمرد، وحبات اللؤلؤ.

فقال «أبو بكر»:

- لقد شرح لنا مدرس التاريخ أن للأحجار الكريمة عند العديد من الشعوب اهتمامًا كبيرًا، وتحظى بتقديرٍ لا مثيل له، لكن لارتفاع

أسعارها، وصعوبة اقتنائها، إلاَّ للأثرياء، ساعد على انتشارها بين الهندوس الأثرياء، والأغنياء، إضافةً إلى أن للأحجار الكريمة أهمية خاصة في حياتهم الدينية، والدنيوية، وهناك علاقة وثيقة بينها، وبين آلهتهم، فكل إله عندهم يقترن اسمه بحجرٍ معين من الأحجار الكريمة، وتعود الفكرة إلى نظرتهم إلى الكون، وعناصره، ونواميسه عند الهندوس، يؤكد أن في الكون تسعة كواكب، كل كوكب يمثل إلهًا من آلهة الهندوس.

في هذه اللحظة، جاء عامل المطعم حاملاً صينية بها كأسان من الشاي بالحليب، تحسَّس «أبو بكر» ما تبقى لديه من نقود بعد عصير التمر هندي، ناول قيمة الشاي للعامل، وراح يكمل حديثه عن الأحجار الكريمة، والمجوهرات، والهندوس، وكيف أنهم يعتقدون بوجود قوة سحرية عليها وعلى الشخص الذي يقتنيها، أو يتزين بها؟ كما هو الحال في الرجل الهندوسي في اللوحة، لقد جاءت الفكرة من بلاد الرافدين «العراق» القديم مهد الحضارات القديمة، فقد كان سكان بلاد الرافدين من سومريين، وبابليين يؤمنون بقوة الأحجار الكريمة السحرية، والطبية، وعلاقتها الوطيدة بالآلهة، وقديما كان الهنود يعتقدون أن الأحجار الكريمة تجلب للشخص الذي يتحلى بها احترام الآخرين له، والشهرة، والقوة الجسدية، والروحانية كما تحقق له جميع أحلامه، وأماله، وهذه

مزايا عديدة قلما تتوفر في الأشياء الأخرى التي يقتنيها الإنسان في حياته، كما كان الهنود يعتقدون أن الأحجار الكريمة الرئيسية هي تسعة، كان من الأرقام السحرية كرقم سبعة عند البابليين.

قاطعه «عبد العزيز»، وهو يردد:

– ما شاء الله عليك... حافظ جيد لمادة العلوم.

ابتسم «أبو بكر» باعتزاز، وقال:

– هنا الدراسة جدِّيَّة، ولن تحصل على علامات، وتفوق إلاَّ أن تستوعب ما يقوله الأستاذ خلال الحصة، ومن غير المعقول أن أضيع الفلوس التي يدفعها والدي للمدرسة سُدىً، ولا تنسَ أيضًا أن لديَّ وقت فراغ كبير، بعض هذا الفراغ أقضيه مع الوالد في دكانه بالميناء، والبعض الآخر أقضيه في المذاكرة، أو قراءة الكتب، خاصةً الكتب الإنجليزية.

رفع «عبد العزيز» كأس الشاي، وراح يحتسيه بلذة، وقال:

– أعتقد أن القراءة هوايةٌ ممتازة، إن شاء الله سوف أبدأ – مثلك – في قراءة الكتب، والمجلات عندما تتحسن لغتي الإنجليزية.

قال «أبو بكر»:

– أنت لا تتصور كم هي مفيدة القراءة، والاطلاع، لقد ساعدتني كثيرًا في دراستي، بل إن بعض المدرسين – وأقولها بفخر – بدؤوا يهتمون

بي كثيرًا، عندما لمسوا تفوقي، واجتهادي، وأتمنى – يا صديقي – أن تسير في نفس الطريق، قال ذلك، وراح يحتسي كوب الشاي.

وقال «عبد العزيز»:

– طبعًا طبعًا. ألستَ شريك، وأريد بالفعل السير في هذا الطريق، على الأقل أبتعد عن هموم التفكير في مرض الوالد، ورغبته البليدة في الزواج من هنا.

قال «أبو بكر»:

– أعتقد حان الوقت الآن؛ لنفكر في اسم الشركة ما رأيك في اسم: سنابل... الحصاد...

وقاطعه «عبد العزيز» قائلاً:

– يا عزيزي، بما أننا أصبحنا شريكين، فمن الأفضل – في تصوري – أن يكون الاسم شاملاً لبعض حروف اسمي، واسمك، مثلاً لو اخترنا الحرف الأخير من «أبي بكر»، حرف «الراء»، والحرف الأخير من «عبد العزيز» حرف «الزاي»، فيكون الحرفين اسم الشركة «رز»، وهو ما تمارسه شركتنا – إن شاء الله – من نشاط تصدير الرُّز لبلادكم، وبلادنا... ما رأيك – دام فضلك.

قالها، وهو يبتسم، و لم يتمالك «أبو بكر» نفسه، وقام سريعًا بتقبل فكرة الحروف، ويشدُّ على يده بحرارة.

- أنا موافق على هذا الاسم الخطير... بس بصراحة، كيف خطرت على بالك فكرة الحروف الجهنمية؟ لولا ثقتي، ومعرفتي بك، وطوال وقتك اليوم معي، لتصورت أنك محشش، أو مستعين بأحد المشعوذين – لا سمح الله – ولكنك طول اليوم معي، ومازلت – ولله الحمد – صغيرًا، وبعيدًا عن مواطن تدخين الحشيش، المهم، رجاءً –يا «عبد العزيز»– تخبرني كيف خطرت عليك فكرة الحروف.

وضحك «عبد العزيز» بانتشاء، وشعر بلهفة صاحبه في معرفة فكرة الحروف، وقال بعد أن اعتدل في جلسته:

- أبدا، إلهامٌ من الله تقدر تقول، لكن بصدق، لاحظت أن الرجل المرسوم في اللوحة يحمل قلادة كتب فيها حرفان، وفكرت أنهما يمثلان الحرف الأول من اسمه، والحرف الآخر من زوجته، أو عائلته؛ فقلت لماذا لانفعل مثله، ونختار حرفين من أسمائنا، وبتوفيق الله، كانا الحرفين الأخيرين يشكلان اسم «رز»، صدقني لم تخطر على هذه الفكرة إلا هنا، بعدين تعال ماذا تعني بالحشيش، لقد سمعت البعض يتحدث عنه ففي الفصل، كان أحد الطلاب قد ضبطه مراقب المدرسة يدخن، وبتفتيشه وجدوا معه قطعة من الحشيش، ونظرا لجهلي باللغة لم أستطع الاستفسار أكثر عن موضوع هذا الطالب البائس.

كان «عبد العزيز» قد أخبر والده أنه ذاهب مع «أبو بكر» في تمشية على الشاطئ، والآن الوقت بعد صلاة العشاء تقريبا، سوف يقلق عليه، لم يتعود أن يتأخر خارج البيت أكثر من وقت صلاة المغرب، فهو يحذره من اللصوص، والحرامية، وعصابات الخطف.

نسي «عبد العزيز» وعده لوالده، نسيه لأنه كان مشغولاً بالانتظار من أجل المطر، فمن المستحيل التحرك، أو السير، والجو عاصف، وممطر، و لم يكن بطبيعة الحال لوحده، معه صاحبه «أبو بكر»، وتذكر «عبد العزيز» ذلك، وقال لصاحبه:

– لقد تأخرنا كثيرًا، والعودة تحتاج لوقت، أخاف الوالد يعاتبني، إن لم يفعل شيئًا أخر فيه مَدَّة يد.

وابتسم «أبو بكر»، وهو يقول:

– اطمئن سوف أذهب معك، وسوف أنام أيضًا في بيتكم، وسوف أرسل أحد الصبيان لبيت الوالد لإخباره عن ذلك.

شعر «عبد العزيز» بارتياح، واطمئنان كبيرين، وأكمل شرب الشاي، كذلك فعل «أبو بكر»، وخرجا، وهما يتناقشان في كيفية البدء في شركتهما الصغيرة «رز ليمتد».

بدأت الحركة في الشارع حدتها.ها، أصوات عربات الخيول المسرعة تعبره، وجدا فيها أنيسًا يقلّل من وحشة الشارع، الذي بات مظلمًا، لولا نور القمر الصامت، إلا من انكسارات ضوئه على أوراق الأشجار القليلة المتناثرة هنا، وهناك بجوار الشاطئ، مع وقع حوافر الخيول، وهي تقطع الطريق لاهثةً تعبةً مما تحمله من بَشَر، عائدين إلى بيوتهم، ومساكنهم المتواضعة، كانت حوافر الخيول، وهي تسير تتسبب وقع حوافرها في تناثر مياه الأمطار المتبقية في الطريق، في كل الاتجاهات، ومع تناثرها تصيب المارة؛ فيصرخ هذا غاضبًا، ولاعنًا، وذاك قاذفًا إياها بحجرٍ، وضحكا كثيرًا، عندما قام أحد المارة بقذف مظلته خلف أحد العربات، بعدما تلوث إزاره بطين الطريق المبلل بماء المطر، فوقعت المظلة في طينٍ، وتلوثت بصورةٍ كاملة.

عندها قال «عبد العزيز»، وهو يشاهد ذلك الرجل الغاضب الحزين،يكاد ينفجر غيظًا:

- لو أنه اكتفى بتلوث إزاره فقط، كان أفضل له، وحافظ على نظافة مظلته، أما الآن فخسر الإزار، والمظلة.

فقال «أبو بكر» ضاحكًا:

- لو تتابع هذه المشاهد كل يومٍ، سوف ترى العجب، خلق الناس باتت ضيقةً، ولا تحتمل ظروف الحياة، وصعوبتها، والفقر، والحاجة، والمعاناة، وتحكم الأثرياء في كل شيءٍ يجعل الناس ينفجرون أمام أيٍّ موقفٍ بسيطٍ.

بعد ساعة من السير المتواصل، وصلا إلى مسكن «أبي عبد الرحمن»، والذي هو عبارةٌ عن مبنىً بسيطٍ من دور واحد، يقع على بعد خطواتٍ من الشاطئ، يتكون من غرفتين، وصالة «غرفة المعيشة» في حجم الغرفتين، ومطبخٍ صغير، وشرفة طولها ثمانية أمتار بعرض ثلاثة أمتار تناثرت فيها أَسِرَّةٌ خشبية مصنوعة من أعمدة خشبية، وحبال، وغُطِّيَت بقطع من البُسُط اليدوية المزخرفة، وعليها وضعت الفُرُش المحشوة بالقطن.

على هذه الأَسِرَّة كان يجلس «أبو عبد العزيز»، وأصحابه، حتى والد «أبي بكر» كان موجودًا... القلق، والحيرة بادية على وجوه الجميع، نظرًا لأنهما تأخرا كثيرًا عن العودة لمسكنيهما؛ فجاء والد «أبي بكر» يسأل عنهما أصحابهما، قبل أن يسلِّما على والديهما، وأصحابهما، بادر «أبو عبد الرحمن» في غضب شديد ابنه «عبد العزيز»، شاتمًا إياه لتأخره إلى هذا الوقت خصوصًا، والمدينة تعجُّ بالاضطراب، والمواجهات بين الانجليز، ورجال المقاومة، وانتشار ظاهرة اللصوصية، والخطف.

كان في الواقع يشعر بالخوف الذي سيطر عليه، فـ»عبد العزيز» مازال يخطو خطواته الأولى نحو الرجولة، ويتمتع بوسامة لافتة، وصحة يحسد عليها، وغمرته هواجسه إلى البعيد فكثير من الفتيان يتم خطفهم، وتوظيفهم بالقوة في مجالات، ونشاطات العصابات داخل المجتمعات السفلية، فالمدينة الآن باتت تغصُّ بالمهاجرين العزَّاب، والأجانب

القادمين إليها من مختلف بلاد العالم طلبا للتجارة، أو البحث عن العمل، لذلك انتشرت مختلف الأعمال البغيضة، والكريهة، وحتى – أقدم مهنة في التاريخ – البغاء، صارت له مواخيره، ومساكنه، وما يقال عن بغاء النساء يقال أيضًا عن شذوذ الرجال، لذلك فمن حقه أن يخاف على ابنه، بل ولولا الحياء لقام، وضربه أمام أصحابه، تعوذ من الشيطان الرجيم، وقال:

- عموما هذه أخر مرة تذهب فيها إلى مناطق بعيدة وتتأخر.. أنت لست في ديرتك، كلها لفة خلال نصف ساعة تنتهي من التجول فيها.

وأضاف بعدما بلع ريقه، والذي جف من خوفه، وحزنه، وأصحابه يطالعونه، وعلى الأخصّ والد «أبي بكر».

- على العموم.. الحمد لله على السلامة، ولقد تركنا لكم العشاء، وعشاء الليلة تحبه يا «عزوز»، قالها بحبٍ أبوي «شكن ماسالا».

وهو طبق شهير، ولذيذ يتكون من قطع الدجاج المنقوع في الليمون، والخل لفترة طويلة، ويتمُّ عمل هذا الطبق الشهي كالآتي:

توضع ٣ ملاعق من صلصة التيكا + ٤ ملاعق كبيرة زبادي + وذرة من الملح في زبدية، ونخلطهم جيدا، ويضاف إليهم الدجاج، ويُترك الدجاج فيه لمدة لا تقل عن ساعة، ويُحبَذ تتبيلُه من الليل، يوضع الدجاج في

صينية، ويُدهن بالزبد، ويدخل الفرن حتى ينضج دون تغليف الصينية، يعني أن تكون الصينية مكشوفة حتى يجف ماء الدجاج، خلال ذلك يُحمَص البصل في الزيت، والثوم، والزنجبيل، والفلفل، الأخضر لمدة ٥ دقائق، يضاف عليه باقي صلصة التيكا، ويحرك جيدًا، ثم يضاف إليه الصلصة، ثم الماء، ويترك لمدة ١٥ دقيقة على نار هادئة، بحيث أنه يطبخ على راحته حتى ينشف الماء، نأخذ الحمصة، ونخلطها في الخلاط، وترجع إلى نفس القِدر، ويضاف إليها باقي الزبادي، وعصير الليمون، وتُتْرك قليلاً على النار، ثم توضع عليه قطع الدجاج المشوية، وتترك، على النار لمدة ٥ دقائق، ثم تقدم بجانب الرز الأبيض، أو خبز النان.

وبدون أن يرُد «عبد العزيز» على والده الذي بدا غاضبًا، وختم كلامه باسمًا... راح يقبل رأسه الذي بدأت صلعته تتوسطه بصورة واضحة، خصوصًا، وهو جالسٌ مثل أصحابه، يرتدي الإزار المخطط، وفانلةً نصفَ كمٍّ، ويضع على كتفه – مثل أبناء المدينة – منشفةً، لزوم مسح العرق، أو لاستخدامها في مآربَ أخرى.

نفسُ الشيء فعله «أبو بكر»، فقبل رأس والده «قاسم»، وجلس مع صاحبه على أحد الأسرَّة بجوار «فيجاي»، الشاب الهندي الذي يعمل وسيطًا بينهم، وبين تجار الحبال في ولاية «كيرالا»، قال «قاسم» والد «أبي بكر» مخاطبًا «أبي عبد الرحمن»:

– ما شاء الله، لقد سبقتني في عتاب الأولاد، والحق أنَّ ما فعلته عين الصواب في بلد تعج مثل غيرها بملايين المحتاجين، والفقراء، والمساكين، ومن هؤلاء يتوالد البعض من الخبثاء، واللصوص، وقطاع الطرق، والشاذين، والمجرمين... بالأمس القريب، كانت السلطات الأمنية تطارد إحدى العصابات، بحثًا عن فتاةٍ صغيرةٍ، تمَّ خطفها من جوار أحد الحوانيت عندما ذهبت لإحضار طحينا من الحانوت، نعم يا «أبا عبد الرحمن» أنا معك فيما ذهبت إليه، ومن المفروض أن يتوخَّى كلاهما الحذر، ولا تتكرر منهما هذه الغلطة الكبيرة، وإن شاء الله، تكون الأولى، والأخيرة.

وأضاف بعدما مسح العرق المتصبب من جبينه بالمنشفة المنديلية الطويلة:

– لقد أوصى لقمان الحكيم ابنه بالسلوك الحسن والتحلي بالأخلاق الحميدة...

فقال «فيجاي» الشاب الهندي الوسيط – وكان يجيد العربية بحكم احتكاكه بهم، وتعامله اليومي معهم:

– بابا كلام أنت صحيح فيه هنا واجد نفر ما يخاف الله ممكن سوي أي شيء علشان يجيب بيزات، بابا أحسن ولد ما يروه بعيد كتير.

فقال «أبو فهد» تاجر مواد البناء:

- وشهد شاهد من أهلها... المهم - يا جماعة - لنترك الكلام في هذا الموضوع وليقم الصبي «كومار» بإحضار عشائهما، أكيد كل واحد منهما ميت من الجوع.

فأجابه «أبو عبد الرحمن»:

- صدقت يا «أبا فهد»، نسينا عشا الأولاد، رحنا في العتاب، والتوجيه

ثم أشار إلى الصبي «كومار»؛ ليقوم بتسخين عشائهما، بخفة، ورشاقة، قام «كومار»، وكان صبيًا من ولاية «كيرالا»، مسيحيٌّ قدم للمدينة منذ ثلاث سنوات، وساقه حظه الطيب - كما يقول دائمًا - للعمل صبيًا لدي «أبي عبد الرحمن» منذ الأسبوع الأول لقدومه إلى المدينة، و لم يكن يصدِّق أنه سوف يحصل على طعامه اليومي مرتين في اليوم، إضافةً إلى بعض الروبيات كل شهر، يمتاز هذا «الكومار» - رغم صِغَرِه - بحبه لعمله الذي يشتمل على الغسيل، والتنظيف، ومساعدة الطباخة «مهارا» خلال إعدادها للطعام، بل إنه استطاع - وخلال أيامٍ - أن يجيد الطبخ بصورة مدهشة، والأهم أنه أمين جدًا، فلقد اختبره «أبو عبد الرحمن» أكثر من مرةٍ، بوضعه لبعض النقود في أماكن متفرقةٍ، وإذا به - والحق يقال - يسارع طائرًا بتسليمها له، ونفس الشيء فعله مع الطباخة «مهارا».

لقد اضطُر لفعل ذلك لتجربته الفاشلة مع أول خدامة، وطباخة عملت لديه، فلقد نسي تحت وسادته في ليلة من الليالي قطعتي نقد فضة «الملكة تريزا»، وعند تذكره لهما، وعاد من عيادة طبيبه «جاكوب» قلقا، اكتشف اختفاء الطباخة، وقطعتي النقد، وبعض المتعلقات الشخصية، والتي كان من أهمها،خنجر صغير مطعم بالفضة من صنع مدينته، أحضره لبيعه إذا احتاج يوما ما لمالٍ إضافيٍ خصوصًا، وهو يعتبر عملاً فنيًا متقنًا.

هذه الحادثة جعلته لا يحسن الظن أبدًا في أي عاملٍ، أو عاملة، إلا بعد عدة اختبارات، وامتحانات، والحمد لله تجربته مع الطباخة «مهارا»، والصبي «كومار» كانت ناجحة، ومع هذا فهو عادة يضع نقوده المهمة في حفرة داخل غرفة نومه من باب الاحتياط، ولا يمكن يسمح لأحد بتنظيف غرفته، إلا خلال وجوده في البيت.

وبينما «أبو بكر»، و«عبد العزيز» مستغرقان في تناول طعام العشاء في الصالة الصغيرة المفتوحة نوافذها لمزيد من الهواء، هبت نسمات صيفية حملت معها رائحة البحر، كما حملت معها المزيد من الأمل، والتفاؤل لنفسيهما فيما سوف يقدمان عليه غدًا، فلقد قررا أن يقوما في صباح اليوم التالي بالبحث عن دكانٍ مناسب، واستئجاره، ومن ثَمَّ يقومان بتسجيله لدى مكتب الميناء المشرف على عمليات التصدير، حتى يتاح لهما الاتفاق مع أصحاب السفن المسجلة في الميناء.

تصاعد القمر من خلال النافذة، ومن وراء الأشجار القريبة من الشاطئ، فالتمع سطح أمواج البحر بضوئه الضعيف، وانعكاسات الأنوار الضعيفة، التي تأتي من المساكن البسيطة القريبة من الشاطئ المجاور تشكل لوحةً ضوئيةً متماوجةً، تبتلع الملايين من الأضواء الفقيرة، تمددا على فراشيهما داخل الصالة الصغيرة، وراحا يكملان حديثهما، وخططهما عن شركتهما الصغيرة، التي سوف تولد غدًا، أو بعدَه، حالما يتمكنان من إيجاد مقرٍ لهما.

في صباح اليوم التالي، جلسا على صوت الصبي «كومار»، وحركته النشطة، وهو يعمل خبز «روتي التندوري» اللذيذ، مع البيض، فرائحة البيض المقلي بالزبد، والكاري، أثارت شهيتهما لتناول الفطور.

اغتسل «عبد العزيز»، ودخل المطبخ وراء الصبي «كومار»، خلال الشهور السبعة في «بومبي»، أكتشف عالم المطبخ الهندي الفريد، الزاخر بشتى أنواع المأكولات الشهية، وتميزه بالكاري، والتوابل الحارة، وهو هنا في هذا المكان الصغير، تعلم من الطباخة «مهارا»، وهذا الصبي «كومار» كيفية عمل بعض أنواع المأكولات، والأطباق، من هنا يشاهد، ويختزن المعلومات، والمكونات، ويجرب، وحتى يأكل، أما عقله فمع تلك الفتاة الحسناء فتاة المطر، وقلبه مع والدته، وكيف يكون وقع خبر زواج والده عندما يصل إليها بطريقة، أو أخرى، ماذا تفعل؟ كيف تتصرف؟ وهي التي

كانت لا تنام الليل، وهي تبكي لمعاناة، والده مع مرضه الجلدي، الذي تسبب في غربته، وحضوره إلى هنا.

خلال وجوده في، المطبخ يُحضّر طعام الإفطار، له، و لصاحبه «أبي بكر»، الذي ذهب إلى الحمام بدأت أمطارٌ غزيرة تهطل، وسارع الصبي «كومار» في وضع طشتٍ نحاسيٍّ تحت الماء المتسرب من السطح، لقد حاول والده جاهدا مع صاحب البيت المتواضع أن يقوم بعمل صيانة له، لكن محاولاته تذهب مع الريح، وهو غير موجود في هذه المدينة، فهو يقيم في ولاية بعيدة جدًا يحتاج السفر إليها عدة أيامٍ، وعادة ما يرسل أحد معارفه لتسلم الإيجار، ويبدو أن والده سوف يقوم أخيرًا بصيانته على حسابه.

على الأرض جلسا، «عبد العزيز» و«أبو بكر»، وأمامهم صينية معدنية فيها صحنان، واحد فيه بيض مقلي، والثاني عسل أسود، وخبز «روتي تندوري»، راحا يأكلان في شهية على صدى صوت المطر الغزير، بعد الأكل، تناولا جميعًا الشاي بالحليب مع الصبي «كومار»، الذي كان سعيدًا جدًا وهو يستمع إلى مديح «أبي بكر» لطريقته في عمل البيض المقلي « الكومارية» كما رددها باسمًا.

عندها قال «عبد العزيز»:

– إذا استمر المطر هكذا، من الصعب علينا الخروج للبحث عن دكان.

فقال له «أبو بكر»:

- لابد من الخروج، هكذا هي المدينة، المطر لا يتركها، ولا تتركه أبدًا، المهم، حالما تخف حدته نتوكل على الله، ونخرج، وممكن أن تستعير مظلة «كومار»، وأنا معي مظلتي، فالخروج للبحث عن الدكان، وفي هذا الوقت من الصباح مناسبٌ جدًا، ونهر الحياة لا يتوقف في هطول المطر أو تَوَقُّفِه.

قال «عبد العزيز» وهو يضع كوب الشاي في الصينية:

- إذن على بركة الله.

خرجا معًا، وكلاهما في يده مظلة... مازال المطر يتساقط، ولكن بصورةٍ خفيفةٍ، ومنعشة كانا في طريقهما إلى الدكان الذي يجلس فيه «فيجاي» الوسيط، فلقد أبدى استعداده على مساعدتهما في إيجاد دكانٍ صغيرٍ يكون مناسبًا للاستئجار.

لم يَدُر في خلد «أبي بكر» أنه سوف يكون محظوظًا بهذا الشكل، ويرسل له الله هذا الفتى العربي؛ ليكون شريكًا له، إنه يشعر بارتياح كبير منه، ومن لطفه، واستعداده للتعلم، والاستفادة من مُختَلَف الفرص، كان قلبه مطمئنًا له، بل إنه - وبعد عودته من الحمام - صلى صلاة الاستخارة، وشعر بارتياح كبير... نعم. إنه يرتاح له كثيرًا، وراح يردد أدعية بأن تنجح شراكتهما.

الطريق لمحل «فيجاي» كان مكتظا بالمارة، والعربات، كل هؤلاء ألجأتهم الحاجة، والبحث عن لقمة العيش في هذا الزمن الصعب إلى الخروج من مساكنهم، والمشي، وركوب العربات، والمطر يواصل هطوله بغزارة الآن.

(الحمد لله لدينا مظلات) قالها «عبد العزيز» سعيدًا... هزَّ «أبو بكر» رأسه، وإذا بـ«عبد العزيز» يضحك ببرود، وجاء صوت «أبي بكر» مازحا:

- تضحك لوحدك على الأقل أنا شريكك الآن.

ثم أردف ضاحكًا:

- حتى في الضحك.

- هل تريد أن تعرف لماذا ضحكت؟

- بالطبع أريد أن أعرف، ربما شاهدت منظرًا، أو موقفًا في الطريق أثارك، ودفعك للضحك... أليس كذلك؟!

- أبدًا كل ما هنالك أنني تصورتك هنديًا حقيقيًا عندما هززتَ رأسك مؤكدًا على صحة كلامي، فضحكت، وتصورت نفسي أنني سوف أصبح يومًا من الأيام مثلك، ومثل أبناء هذه الأرض الممطرة... الله يخلف على ديرتنا المطر فيها ننتظره بلهفة، وشوق، وندعو الله مخلصين في صلاة الاستسقاء، أن يمطرنا خيرًا

فضحكا معا في سعادة، وقال «أبو بكر»:

- سبحان الله الواحد يتعود على البيئة التي يعيش فيها، بل، وأحيانا يتطبع بطباعهم؛ لذلك ترى الجالية العربية - خصوصا أهلنا القادمين من «حضرموت»، و«اليمن»، و«عمان»، و«الجزيرة»، و«البحرين»، و«الكويت»، و«العراق» - يتجمعون في منطقة واحدة لمزيد من التعاون، والتكافل، وحتى لا تنصهر تقاليدهم، وعاداتهم في هذا المجتمع، مع أن متطلبات الحياة، والعمل، وحتى الزواج، وتكوين أسر مختلطة، جعلتهم يكتسبون بعض العادات، والطباع الهندية، فمثلاً الشيخ «سعود» بات من عشاق «السعوط»، كذلك والدي تعلم عادات هندية، لم يكن يعرفها من قبل، وهذا بفضل زواجه من زوجاته الهنديات الثلاث.

فقال «عبد العزيز»:

- معك حق حتى والدي - والذي لم يمضي هنا أكثر من سبعة شهور - ها هو صار يمارس بعض العادات، والطباع الهندية.

عندما وصلا إلى المحل، كان «فيجاي» ينتظرهما، وهو يتصفح عددًا قديمًا من جريدة كاريكاتورية إنجليزية، وابتسامة عريضة على وجهه السمين؛ كونه مطمئنًا أنه سوف يستفيد ماديًا من وساطة لهما في وجود محل، أو دكان في موقع قريب من الميناء، أو حتى من الطريق المؤدي للشاطئ، رحب

بهما كثيرًا، بل وسارع في طلب شراب جوز الهند الطازج من الحانوت المجاور، بعد دقائق من استعراض المحلات المعدة لإيجار، والقريبة نوعًا ما من الموقع المرشح لديهما، وبعد استعراض قيمة الإيجار السنوي، طلبا مشاهدة موقع أحد المحلات، والذي تصوراه مناسبًا للمبلغ الذي وضعاه في ذهنهما... بدا الارتياح ظاهرًا على وجهيهما، ثم انطلق الثلاثة، «أبو بكر»، و«عبد العزيز»، والشاب السمين «فيجاي»، خلال سيرهم قال «فيجاي»:

– شوف صديق «أبو بكر» هذا محل واجد حلو واجد زين، وإذا أنت يبغى أنا تعاون معاكم... خلاص ما في مشكل أنا معلوم نفرات في يجيب رز واجد ممتاز... نمبر ون، أنت شوف مع صديق «عبد العزيز»... أنا كثير ممنون.

أجابه «أبو بكر»:

– طبعًا طبعًا. سوف نحتاجك إن شاء الله، لكن «يونس» سبق، وأكد لنا معرفته، واستعداده للتعاون معنا، وإن شاء الله يصير خير.

تلاقت عينا «أبي بكر»، و«عبد العزيز» في نظرة طويلة لها معنى.

في التاسعة من صباح يوم الاثنين بالضبط، وصل الثلاثة إلى المحل المراد استئجاره، المحل عبارة عن غرفة صغيرة، مقتطعة من مستودع كبير لمواد

البناء، التي سوف يتم تصديرها إلى الدول الخارجية، له فتحة مباشرة على الطريق من خلال طُرْقَةٍ تمتد على مسافة عشرة أمتار، المشكلة التي واجهتهم كون المحل، أو الغرفة الصغيرة بدون نوافذ، وسوف تكون خانقةً جدًا عند ارتفاع درجة الحرارة، والرطوبة.

قبل أن يبديا ملاحظاتهما قال «فيجاي» الوسيط السمين:

– صديق هذا مكان ممتاز قريب من الميناء، وله فتحة على الطريق العام، وإيجاره مناسب.

قال «عبد العزيز» :

– لكن الجلوس فيه سوف يكون خانقًا، وغير صحي، هذا أشبه بغرف السجن، أعتقد لو أردنا أن نجلس داخلها، لابد نجلس بدون إزار، وفانيلّة... العمل هنا ربي كما خلقتني.

فضحك «أبو بكر»، وضحك معه «فيجاي» دون أن يفهم أبعاد ما قاله «عبد العزيز»، بعد لحظات أطل أحد العاملين في مستودع الأخشاب، وحياهم بالتحية الهندية المعروفة، وقال لهم إن صاحب الغرفة سوف يضع بابًا خارجيًا في حالة قبولها، فقال «عبد العزيز» بينه، وبين نفسه(أكملت بس لا ينسى يحط قفل).

التفت «عبد العزيز» لصاحبه «أبي بكر»:

– أنا عندي اقتراح، وفيه توفير لنا لو «فيجاي» يقنع صاحب المستودع يخصص لنا ثلاثة أمتار في ثلاثة أمتار في مقدمته، ونقوم نحن بتنفيذ القاطع، فهذا أفضل، الموقع مناسب جدًا لكن الغرفة الداخلية لا تصلح أبدًا كمكتب تصدير، على الأقل في مكان، المستودع يمكنك تشوف الناس، اللي رايح، واللي جاي، وتشم هواء.

(نعم). قال «أبو بكر»:

– مكان المستودع مناسب جدًا، المشكلة إن شاء الله، يستطيع «فيجاي» إقناع صاحب المستودع.

أجابه «عبد العزيز»:

– أخبره، لو أستطاع إقناعه، وتم استئجاره كمكتب، له بقشيش.

لم يتردد «أبو بكر» فراح يتحدث مع «فيجاي» باللغة الهندية، وكلاهما يهز رأسه، وهما يتبادلان الحديث، وما هي إلا لحظات، وإذا «فيجاي» يأخذ العامل على جنب، ويتحدث معه بصوت خفيض، ربما علم «أبو بكر» بما دار بينهما، لحظات، واستدار «فيجاي» نحوهما مبتسمًا، وهو يشير بإصبع الإبهام بعلامة الموافقة.

أول ردة فعل لهما احتضانهما لبعض، تصافحا بحرارة، وراح كل واحد منهما يقبل الآخر، فهاهما من هذه اللحظة سوف تبدأ خطواتهما، وانطلاقتهما في عالم التجارة، على الرغم من كونهما طالبين مازالا على مقاعد الدراسة، كم هو جميل أن يبدأ الإنسان خطوته الأولى نحو الهدف، وتحقيق الذات، كان حماسهما الشديد، ودعائهما لله المستمر، وراء نجاح خطوتهما الأولى، لم تمضِ ساعة من الوقت إلا، وهما قد وقعا عقد الإيجار، وسلّما جزءًا من المبلغ لصاحب المستودع، وقاما بتسليم العامل إكرامية فرح بها كثيرًا، أما إكرامية «فيجاي» السمين فهي سمينة، وكبيرة مثل حجمه.

خلال عودتهما راح «أبو بكر» يقول:

— الحمد لله – يا «عبد العزيز» – لقد وفقنا الله، وكما يقول المثل:(كل مشروك مبروك)، فالله سبحانه تعالى بارك لنا – ومنذ البداية – فسخر لنا «فيجاي»، وذلك العامل فحصلنا بسرعة على المحل المناسب، لو تتصور كم تعب «أبو فهد» وهو يبحث عن محل بإيجار مناسب، لقد أضاع أيامًا، وأيامًا، في البحث عن المحل المناسب، ونحن – اللهم لك الحمد والشكر – خلال ساعات معدودة فقط.

فتح «أبو عبد الرحمن» باب الشرفة المطلة على الطريق، وأستنشق النسيم، ورفع يده قريبًا من وجهه، وراح يراقب جلده الذي مزقته أظافره فيما

مضى من زمن، الآن حالته باتت أحسن، (اللهم لك الحمد والشكر) رددها أكثر من مرة، لقد أكد له طبيبه «جاكوب» أن مرضه ليس مرضًا عضويًا، وأنه نتيجةً لاضطرابات نفسية.

فجميع التحاليل التي أجريت له، أكدت خلوه من أي مرض عضوي – لا سمح الله – لا في الجلد، ولا في الأمراض الباطنية، والنتيجة يجب عليه أن يغير من عاداته السابقة، إضافة إلى أن الطبيب لا يستطيع الذهاب إلى بيته في ديرته؛ لاكتشاف بعض الأشياء التي قد تكون وراء مرضه، لكن جميع المؤشرات تؤكد أن هناك عوامل نفسية وراء ذلك، المهم، الآن أن لا يفكر إلا في الراحة، وعدم الغضب، والاستمتاع بمباهج الحياة، مع مراقبة طعامه اليومي، لذلك اضطُر إلى إحضار الطباخة «مهارا»، والتي بدأت تسجل محتويات ما تضعه في الطعام من توابل، وبهارات لاكتشاف إذا كانت وراء إثارة الحكة في جسده.

كانت «مهارا» فتاةً ضئيلة الجسم، لكنها على قدر من الجمال، لونها القمحيُّ فيه شيءُ من البياض، منذ شهورٍ بدأ جسمها يزداد سمنة، حتى أن «قاسم» قال له مرةً:

– يبدو أن «مهارا» تأكل أكثر منكم، أو أنها تأكل ما تطبخه، فصحتها بدأت تكون أفضل حتى من «عبد العزيز».

فأجابه «أبو عبد الرحمن»:

– معك حق، لقد كانت ضعيفة من الجوع، كانت سَلْوَع أول ماجات، اليوم مثل ما تشوف، والحمد لله هنا الخير كثير، وأنا مثل ما تعرف لا آكل كثيرًا، وأمري لله ملتزم ببرنامج الطبيب الغذائي... نفسي آكل كل شيء لكن الطبيب «جاكوب« مُصِّرٌ على السير على البرنامج.

فقال «قاسم» بعدما أصلح من وضع إزاره، وراح يتحسس بطنه بيده:

– تصدق بالله يا «أبا عبد العزيز»، إن «مهارا» تصلح زوجةً لك، صحيح فقيرة، وكانت قبل شهورٍ «سَلوَع»، لكن طالع ما شاء الله صارت مَرَه خرطتها العافية.

كاد يقول له «أبو عبد العزيز» (معك حق... لقد شعرت بذلك، حتى إنني شعرت بها، وهي تقترب مني، وتخيلت الجنس معها بتؤدة، وانتشاء، وكانت نظراتها هي الأخرى فيها شيء من الرغبة، لكنني تعوذت من الشيطان الرجيم... فأنا إنسان مسلمٌ، ومحصن، ولا يمكن أغلط، لكن لا مانع أن أتزوج، أطفئُ النار المتأججة داخلي)، وراح يردد بينه، وبين نفسه: (صحيح أنني خجول، وصعب أن أقول ما في نفسي «لقاسم»، ولغيره من الأصحاب، لكن هذا واقع ما أحسه، وأشعر به كرجل حقيقة).

وراح يردد بينه وبين نفسه: (هداك الله يا ولدي «عبد العزيز»، أنت لا تعرف ما يحسه والدك وما يشعر به كرجل، مسلم، محافظ، ويخاف الله،

إنه لا يخالف الله، ولا الشرع إذا تزوج زوجة أخرى، أتراه يمارس الخطأ، أم تريده يضعف، وينصاع خلف إغراءات الشيطان، وفتنة النساء؟)

دار بعينه في المكان، وقال مخاطبا «قاسم»:

- أفكر جديا في الزواج من فتاة، وسوف ننتظر «يونس»، ونرى ماذا سوف يحضر لنا من نساء، وفتيات مسلمات؟ إن شاء الله نجد فيهم الزوجة الصالحة، والمناسبة.

أجابه «قاسم»، وهو يحكُّ أنفه بإصبع السبابة:

- كم أنا سعيد بسماع ذلك... أنت تستحق الراحة، والسعادة، والاستمتاع بما أحلَّه الله، ولا يشغل بالك ابنك «عبد العزيز»، ربما يتضايق يومًا، أسبوعًا، لكنه سوف يخضع للواقع، ويستسلم مثل بقية الأبناء، الذين تزوج آباؤهم مرةً أخرى.

فأجاب «أبو عبد العزيز»:

- الله يكتب اللي فيه الخير.

فقال «قاسم» بعاطفة:

- إن شاء الله يكتب لك الخير.

وأضاف باسمًا:

- أنا واثق من ذلك لأنك رجل خير.

غادرا المكان إلى خارج الشرفة المطلة على الشاطئ، ونسيم البحر يلاطف جسديهما نافذًا من خلال قماش الفانيلّة المبللة بالعرق، وصوت أمواج البحر، وهي ترتطم برمال الشاطئ، أخذ نسيم البحر يهب خفيفًا، نديًا، يداعب أغصان شجرة «جوز الهند» المجاورة للشرفة، وحتى أطراف إزاريهما المقلمين، شعر «أبو عبد العزيز» بسعادة كبيرة أنه التقى صاحبه «قاسم» في هذه الأرض العجيبة فانشرحت نفسه؛ لأنه وجد في بلاد الغربة شخصًا متميزًا مثله، يستطيع أن يتحدث إليه، أن يقول له ما في نفسه، حتى ابنه «عبد العزيز» بات صديقًا لابنه «أبي بكر».

سبحان الله، كيف حدث هذا؟ تُرى، هل تستمر علاقتهما للأبد؟ أم أن علاقتهما وليدة معرفة الغربة، والشعور بالراحة، والثقة لأبناء الجلدة الواحدة؟ وتنتهي هذه العلاقة مع نهاية إقامته هنا، وحصوله على علاجه المطلوب؟ على أية حال لماذا يشغل نفسه بهذه الأمور، لقد مضت الشهور عليه، وهو هنا في هذه المدينة الحلم، المدينة التي لم يكن يتصور يومًا ما أن يقيم فيها يومًا واحدًا، سبحان الله، سبحان الله، الذي يجمع، ويفرق.

إنه يذكر تمامًا كيف كان يستمع لأحاديث جده «داود» عندما كان يتحدث عن سفره إلى «الهند»؟! وكيف كان يشعر لحظتها بالدهشة، والغرابة مما يسمع من قصص جده، وحكاياته عن سفرته الوحيدة لـ«مومبي»؟! وكيف كان يشاهد النساء بدون عباءة، أو غطاء، أو حتى حجاب؟ وكيف

كان يصف حسن، وجمال، وفتنة بنات «الهند»؟ لحظتها كان يتمنى من أعماقه أن لا يتوقف جده عن الحديث، و أن يحكي لمعارفه في مجلسه عن لحظات الخوف من أمواج البحر العالية عندما تتقاذف سفينتهم التي بدأت بين أصابع الموج كورقة جافة سقطت من غصن شجرة وراحت تطير في الهواء.. كان لحظتها يتمنى إن لا يتوقف جده عن حكاياته، وقصصه، ولولا الحياء لطلب من جده أن يروي له مواقفه، ومشاعره، وهو يشاهد نساء «الهند» الفاتنات، وهل هُنَّ حقيقةٌ كما شاهدهُنَّ جده؟ من لحم، ودم يشبهنَ نساء ديرته... في ديرته شاهد العديد من النساء خفية، ومن خلف النوافذ، أو من خلال المناسبات، والأعياد، عندما يجتمع نساء أسرته، وفتياتها، ومعارفهن من النساء الأخريات، كانت هناك فتيات، ونساء جميلات، بعضهن يتميزن بجمال مثير، والبعض الآخر جمالهن عاديٌّ جدًا.

لكن وصف جده لجمال بنات، وفتيات «الهند» كان وصفا يدعو للدهشة، وطلب المزيد المزيد، لا يعرف لماذا؟ لقد مضى على حكايات جده أكثر من عقدين من الزمن، ومازال يذكر تلك اللمعة في كل كلمة تخرج من فم جده، كل كلمة كانت تخرج محملةً بالشبق الرجولي، والشوق للأنثى، حتى هو كان يستمع، ويستمتع بحكايات جده، وهو في سنِّ الثالثة عشر بشيء من الشعور الغريب الذي انتابه لحظتها، حاول أن يستوعبه، يكتشفه من خلال وعيه الطفولي، لكنه لم يستطع إدراك كنهه.

واليوم ها هو هنا في «الهند» جاء من أجل العلاج، ويشاهد كل يوم المئات من الفتيات الهنديات الجميلات، بل وتعيش معه خادمته الحسناء «مهارا»، والتي شعر أكثر من مرةٍ برغبة إليها، لكنه كان يتعوذ من الشيطان، على الرغم من أنه قرأ في عينيها نفس الرغبة، والاستئناس بوجودها معه، ورعايتها له خلال تمسيده، ودهان جسده بالزيوت الطبية، ومع أن رائحتها مشبعة بالتوابل، والبصل، إلا أنه أدمن عليها، وأحس أكثر من مرة بدم جديد يتدفق في شرايينه، وأوعيته، ويُشيع فيها الرغبة، والشهوة، فقد كانت زوجته خلال العامين الماضيين بعيدةً عنه من يوم انتشر في جسده هذا المرض اللعين، لقد كانت تنام في حجرة، وهو في حجرة أخرى، بل كاد يصبح شخصًا منبوذًا حتى داخل بيته.

وكانت حياته قبل حضوره إلى «الهند» يشوبها النكد، والضيق، والمعاناة، ونفور الآخرين منه، وكان بينه وزوجته مع مرور الأيام بعدًا جسديا، وموتًا للعواطف، والمشاعر، لولا الالتزامات الأُسَرية، والاجتماعية، ووفاؤه لكونهما من أُسرةٍ واحدةً، بل إنه سمع يومًا – بالصدفة – إحدى نساء العائلة تقول لزوجته (من حقك أنك تطلبين منه الطلاق ما دامه «مجروب»)، وكان يشعر بمعاناة زوجته، وأولاده؛ لذلك لم يتردد في التفكير بالحضور إلى هنا للعلاج، وبعد هذه الشهور من الإقامة هنا ها هو يشعر من جديدٍ بحركةٍ نشطةٍ لأمواج برْكَتِه «الجنسية»، ورغبةٍ صارخةٍ

للجنس، للغريزة، للحياة؛ لذلك لا يلوم نفسه عندما يفكر في خادمته «مهارا»، ومع هذا كان إيمانه القوي حرزًا، وحصنًا قويًا يمنعه عن ذلك، وكم مرةٍ تعوَّذَ من الشيطان الرجيم، لقد أحس خلال الشهور الماضية، وبالرفقة مع «مهارا»، وعنايتها له، واهتمامها به، بأن أمواج بركته الداخلية تتلاطم، ذات اليمين، وذات الشمال، بل إنها تكاد تتفوق على أمواج البحر الغادرة، عندما تتلاعب بسفن الصيادين، أو المسافرين.

لقد تفتحت مشاعره كرجلٍ يحمل داخل جسده طاقةً، فَصِحَّتُه الآن في تحسُّنٍ مستمر، بل إن شكل جلده بدأ يعود لطبيعته، وملمسه بات نوعا ما ناعما كما كان في الماضي، قبل إصابته بمرضه اللعين، صحيح لم تختفِ آثاره كليةً، لكن جلده أصبح غير منفرٍ كما كان قبل العلاج،

كان الجو ممتعًا، والبحر تتلاطم أمواجه على الشاطئ، قال «قاسم»:

— أنا متأكد أنك سافرت إلى البلاد، لقد مضت فترة، وأنت تتابع حركة الأمواج، كأنك في عالم آخر،أليس كذلك؟ هل ما ذكرته حقيقة؟

— نعم. لقد سافرت بعيدا – يا «أبا أبي بكر» – تذكَّرتُ جدِّي «داود» – رحمه الله – وحكاياته عن زيارته الوحيدة لـ«الهند»، لقد روى ليَ الكثير عندما كنت في سنِّ ابنك «أبي بكر»، وكنت أعيش لحظتها في دهشة، واستغراب شديدين، وأنا أستمع إليه، وبعد ثلاثة عقودٍ، ها أنا أقيم في «الهند»، وأشاهد بنات «الهند» الفاتنات اللواتي فتنَّ جدِّي.

قال «قاسم» باسمًا:

– يبدو أن التاريخ يعيد نفسه.

أجابه «عبد الرحمن»:

– ربما... ولكن جدّي لم يتزوج هندية، أما أنا فهناك رغبة تدفعني إلى الزواج.

نظر إليه «قاسم»، وأبصر عينه تائهة النظرات، مرفوعة البصر إلى السماء، كأنه في حالة أمل، ورجاء، وراح يقول له، ويده تربت على كتفه:

لا تشغل بالك – يا أخي – دع الأيام تفعل ما تشاء، المكتوب علينا لا مهرب منه... أنا عندما أتيت إلى هنا قبل سنوات، لم أكن أتصور أنني سوف أصبح من سكانها، بل وهناك من يعتبرني إحدى ركائز الجالية العربية فيها، والحمد لله، لقد تزوجت أكثر من زوجة بعد رفض زوجتي أم «أبي بكر» الحضور إلى هنا، والإقامة معي حيث رزقي، والحمد لله.

فالتفت إليه «عبد الرحمن» في احترام، وأمسك يده في تقديرٍ، ثم قال:

– أنا إنسان مؤمن بالقدر خيره وشره؛ لذلك دائما أنا متفائل، ولا أشعر بالخوف من ما يخبئه القدر، فالله سبحانه، وتعالى حليم بعباده؛ لذلك أنا مطمئن، إضافةً إلى أن أحوالي طيبة، ولقد أرسلت مع التاجر «أبي مساعد» بضاعة ليُسلِّمها لوكيلي في «الإحساء»، وعند بيعها سوف

أحصل – بمشيئة الله – على مكسب كبير جدًا، المسألة فقط أن الواحد منا معرض للشعور بالقلق، هذه طبيعة البشر، ويتضاعف القلق كلما كان الإنسان بعيدًا عن ديرته، وأهله، وجماعته، لكن صدقني معرفتك – يا أخي – وجميع الإخوان اللي من «الجزيرة»، أو من ديرتكم، أو من أهل «البصرة»، أو «بغداد» تُشعرني دائمًا بأني بين أهلي، وجماعتي.

فتطلع إليه «قاسم»، ولمعت عيناه، وتماوجت الغضون حول عينيه الصغيرتين، وتحرك سَعْفُ شجرة جوز الهند العملاقة، فلم يتمالك نفسه، وضغط على يد «أبي عبد العزيز»، وهو يقول:

– اطمئن، أنت رجل خير، وصاحب الخير مصيره للخير، لكن على فكرة، سمعت اليوم – العصر – وصول جلبوت قادم من «البحرين»، وفيه ناس من مدينتكم «الإحساء» بعضهم تجار، وبعضهم طالبين علاج... فرصة، تسمع آخر أخبار البلاد.

أجابه «أبو عبد العزيز»، والسعادة تكاد تقفز من ملامحه، وقلبه راح يخفق بشدة، وراح يمني نفسه بمشاهدة أبناء مدينته، وهو يدعو الله مخلصًا أن يكون أحدهم قد أحضر معه «مكتوبًا» من الأهل فكم هو مشتاق لأخبار الأهل، والديرة، بل وحتى تمر «الإحساء» الشهير، لقد ملَّ من كل التمر «الحويل»، والذي يوجد لدي بعض معارفه من تجار الجزيرة، وقد استهوته فكرة أن يكون أحدهم قد أحضر تمرًا جديدًا.

وإذا بـ«مهارا» تسأل سيدها «عبد الرحمن» إذا كان يريد أن يتعشى مع صاحبه في الشرفة، أم داخل غرفة المعيشة؟ أجابها «عبد الرحمن»، وهو يشير بسبابته:

– هنا.

لحظاتٌ، وإذا بها تعود حاملةً صينيةً نحاسيةً، تَوَزَّع عليها أكثر من طبق لمأكولاتٍ بسيطةٍ من اللحم، والخضار، له روائحه الهندية الخاصة... كاري، وزعفران، ونعناع، حول طبق من الروب.

كانا في أواخر الصيف، وكان الجوُّ مازال حارًا، ورطبًا... جلسا حول الصينية... فاجأ «عبد الرحمن» «قاسم» وهو يتأمل ملامح جسد «مهارا» الذي بدا جميلاً، وملفوفًا، وسأله عن فحوى، ومعنى هذه النظرات الغريبة الشهوانية، فأجابه «قاسم»:

– مع أني متزوجٌ من ثلاث، لكن طمع ابن آدم ما يملؤه إلا التراب، البنت فيها شيء مختلف، صارت أحلى، ألم أقترح عليك الزواج منها.

– كان يقول ذلك، وهو يسافر عبر ملامحه الداخلية... عينيه... شفتيه، ورأى فيها شهوةً، ورغبة الرجل الذي يعاني من عطشٍ، وجوعٍ شديدين.

يا ليته يستطيع أن يقول: (له معك حق – يا صديقي، وأخي – نعم. إني أشتهيها، ولكن لا أستطيع الزواج منها، ماذا يقول ابني «عبد العزيز»؟ وجماعة التجار، والمعارف بماذا أجيبهم؟، وعندما تصل أخبار الزواج

إلى الأهل في البلاد... («أبو عبد العزيز» تزوج خادمته الهندية)... لاشك أنها سوف تكون فضيحة، يتحدث عنها الناس في ديرته، لأيام، وربما لشهور، وحتى سنوات، لكن لو تزوج فتاةً، أو امرأةً عاديةً مسلمةً، مثل الآلاف غيره، فسوف يعذره البعض، بل هناك من سوف يغبطه، أو يحسده الكثيرون على تصرفه السليم لرجل في غربة، وتصرف بما يمليه عليه ضميره، ودينه، وما تعلمه في حياته من قيم إسلامية، واجتماعية، تجعله رجلاً شجاعًا لا يحب أن ينزلق في طُرُقِ الحرام، أو يتبع غوايات الشيطان، فالزواج هو الحصن الحصين لكل مغتربٍ تطول فيه غربته عن زوجه، وأسرته).

نظر إليه «قاسم»، وهو يمضغ طعامه، وقال:

- غدًا سوف يكون هناك وليمةٌ كبيرةٌ في منزل الحاج «سعود»، بمناسبة قدوم التجَّار من «البحرين»، و«الإحساء»، وسوف تكون فرصة نلتقي فيها، وربما جاء «يونس» أيضًا من «حيدر أباد»، ومعه مجموعة من الفتيات المسلمات الراغبات في الزواج، كما أخبرنا سابقًا.

يمضي الوقت عليهما سريعا، وهما يتحادثان في شئون، وشجون مختلفة خاصةٍ، وعامةٍ، وإذا بـ«عبد العزيز» قد جاء حاملاً في يده كيسةً قماشيةً، وخلفَه رجل هندي يحمل على رأسه «قلة» تمرٍ مخيطةٍ في كيسٍ من الخَيش.

سلم عليهما، بعدما قبّل رأس والده، ورأس صاحبه «قاسم»، وقال وهو يكاد يلهث من التعب، والعرق يتصبب من جبينه:

— أبشرك يا أبوي الأخبار زينه، لقد وصل في المركب القادم من «البحرين»، و«العقير» ثلاثة تجار من «الإحساء»، واحد منهم «أبو ناصر» معه ها الكيسة، وقلة التمر، يقول: خالي «سعد» سلمها له، وأوصاه يسلمها لك، والحمد لله التقيت به مغرب اليوم في مسجد السوق، وكان برفقة العم «سعود»، والذي عرّفه بي، ولأنه يعرف أنك أكيد مشتاق لأخبار الأهل، فسلم لي ما حمله معه من «صوغة»، وتمر، وهو مشتاق أن يراك غدًا في عزيمة العم «سعود».

لم يخفِ «عبد الرحمن» شعوره بالفرح بوصول «الصوغة»، والتمر، وسارع بالطلب من ابنه أن يفتح الكيسة القماشية، بسرعة راحت يدا «عبد العزيز» تفتح «الكيسة»، والمخيطة جيدًا بعناية، وكانت المفاجأة... فهناك أكثر من رسالة وضعتا داخل اسطوانة من الصاج مثل التي توضع داخلها صكوك البيوت، وأوراق الأملاك، وعلبة قديمة كان بداخلها كمية من «الملتوت»، و«الكليجا»، أشهر الحلويات التي تميزت بها ديرته، والتي تتفنَّنُ نساؤها في إعدادها، كانت رائحتها المشبعة بالهيل، وماء الورد مازالت عبقة على الرغم من مضي أسابيع على إعدادها، بدأ القمر يختفي خلف الغيوم، وخلف سعف شجرة جوز الهند الباسقة، والدائمة الخضرة؛

لأنها تتغذى بمياه بيتهم الصغير، كان الرجل الهندي قد وضع «قلة» التمر من فوق رأسه، وراح يمسح العرق من فوق شعر رأسه الأشيب، ويمسح معه التعب، والإرهاق الذين صاحباه من داخل بيت «أبي سعود» بالقرب من السوق... مسافةٌ ليست ببسيطة، قطعها هذا الرجل حاملاً «القلة»، وهو يمنّي نفسه بأجرةٍ طيبةٍ، و لم يكن يتوقع أن يحصل على طعامٍ في هذا الوقت، فلقد طلب منه «عبد الرحمن» الجلوس، وتناول الطعام، قبل أن يمد يده ببعض «الآنات»، بل إنه طلب من «عبد العزيز» أن يذهب لـ«مهارا» لتحضر المزيد من الطعام له، وللعامل الهندي.

بسرعةٍ صرخ «عبد العزيز» في «مهارا» طالبا منها إحضار المزيد من الطعام، وهو يتناول إحدى الرسائل المرسلة لوالده من خاله، كانت تحمل بأسلوبها التقليدي، وتعبيرها الركيك آخر الأخبار، وتحيات الجميع، بدءًا به، ومرورًا بأعمامه، ووصولاً إلى والدته، جميعهم باختصارٍ كانوا يتمنون له الشفاء العاجل، والحرص، والاهتمام بـ«عبد العزيز»، وبصحَّته، بل إن الرسالة تضمنت أخبارًا عن من رزقه الله بأولاد، أو بنات، ومن توفَّاه الله، بل إن خاله لم ينسَ أن يشير إلى أن موسم «الصرام» حصاد التمور في بستانه المجاور لـ«عين مرجان» كان ممتازا، أما تمور بستانه في «المطيرفي»، فلقد سرقه البدو، والمضحك المبكي أنهم أجبروا حراسه على تحميله على جمالهم، على الرغم من مقاومة الحراس الشديدة، والباسلة

لكن كما يقولون الكثرة تغلب الشجاعة، مع إصابة أحد الحراس في ساقه إصابةً خطيرةً، تابع «عبد العزيز» قراءة رسالة خاله وسط دهشة والده، وصاحبه «قاسم» لما تضمنته من أخبار، وإشارات مختصرة عما في البلاد من أخبار سارة تارةً، وحزينة، بل بائسة تارةً أخرى.

تحاشى «عبد العزيز» أن يشير إلى أسماء نساء الأسرة، والعائلة اللاتي نقلْنَ سلامهُنَّ إليه، حتى لا يعرف عمه «قاسم»... نعم. لقد بات يدعوه من شهور بعمه «قاسم»، فلقد صار يراه مع، والده طوال ساعات النهار، ولا يفترق عنه إلا عندما يذهب إلى منزله، أو عندما يسافر خارج المدينة في مهمة عمل تتعلق بتجارته، وتصديره لبعض المنتجات لبلاده في «اليمن»، و«عدن»، و«حضرموت».

الرسالة الثانية، كانت من وكيل والده، وشريكه أيضًا في دكانه الكبير «بقيصرية» مدينته... بعد المقدمة التقليدية من حمدٍ، وشكرٍ لله على الصحة، والعافية، والرزق الوفير في هذا الوقت الصعب الذي تعاني منه البلاد من الحكم العثماني البغيض، راح ينقل له تحيات معارفه من التجار في سوق «القيصرية»، وأعيان المدينة، وبعدها أخبره عن حاجة السوق إلى الأقمشة الحريرية النسائية، وقماش اللاس الرجالي، إضافةً إلى الهيل، ولقد أرسل مع حاملها النقود، على إن يصله المطلوب قبل شهر رمضان.

بعد الانتهاء من قراءة رسالة الوكيل، قام «عبد الرحمن» بإهداء صاحبه «قاسم» كمية من «الصوغة»، الحلويات التقليدية من «ملتوت، وكليجا»، وقال له:

– نصيبك من التمر سوف يَصِلُك غدًا.

وضعت «مهارا» كميةَ الحلويات في قطعة من القماش على شكل «بقشة»، وحملها «قاسم» بعد أن ودَّع صاحبه، وابنه على اللقاء صبيحةَ يومِ غدٍ في دكانه بسوق الميناء، لم يستطع «عبد الرحمن» بعدما نام ابنه أن ينام، راح يفكر في «الديرة»، ويتأمل السماء التي بدأت تتماوج من فرط الغيوم، كأنه يسألها عمَّا تحمله الأيام القادمة له، ولديرته، ولأسرته من جديد، من خير، ومن حزن، وسعادة.

أَمَا كان من الأفضل له لو توفر له العلاج في بلاده؟ بدلاً من الغربة، والسفر الطويل، ماذا فعل الأتراكُ في ديرته.. إنهم اغتصبوها، و لم يوفروا لأهلها الطيبين ما يجب أن يوفروه لهم، من توفير العلاج، من مستشفيات، وأطباء.

لقد حصلوا على الكثير من خير الأرض طوال العقود الماضية، إلا أنهم – وللأسف الشديد – لم يحققوا لها ما يجب، لقد انتشر الفقر بين الناس، وكثر اللصوص، وتفشت الأمراض، وساد النهب، والسلب، بل هناك من يتهم «العسكر» بوقوفهم خلف العديد من قضايا السطو، والسرقة، نعم.

إنهم اغتصبوا أرضه، وأرض أجداده مثلما تغتصب فتاةٌ عذراء، عفيفة، وشريفة، نعم. فالإحساء كانت، ومازالت فتاةً حسناء... اغْتُصِبَتْ من قِبَلِ الغرباء من قبل الأتراك.

وبعد سهادٍ طويلٍ، وتفكيرٍ أطول في ديرته الحبيبة، نام تعبًا، واستيقظ على صوت «كومار» الصبي الهندي، جاء حاملاً جرار الماء، نهض، وتوضَّأ، وصلَّى، ثم أيقظ ابنه «عبد العزيز»، فلقد حان موعد المدرسة.

خرج إلى الشرفة، وهو يحمل في يده كوبًا من الشاي بالحليب، النور يغمر الشاطئ، والبيوت الصغيرة المتناثرة، وعلى مسافة تنتصب أعمدة سفن الميناء، وأشرعتها، وتبدو من بعيدٍ سفنٌ قادمة ببطء... أشعة الشمس تنبئ بأن اليوم سوف يكون يومًا حارًا، جلس على المقعد الخشبي، وراح ينتظر «مهارا» التي راحت تعد له، و«لعبد العزيز» طعام الفطور، في انتظار صاحب العربة التي سوف تنقلهما إلى داخل المدينة حيث المدرسة.

في هذا الوقت المبكر، لا يمكن أن يترك ابنه يسير وحيدًا حتى ولو رافقه الصبي «كومار»؛ فقطاع الطرق، وخاطفو الصبية، ينتشرون في كل مكان، ولولا أن صاحب العربة من الرجال الثقات، ويحمل معه دائمًا سلاحًا، وحرسًا غلاظًا، لما اطمئن على ذهابه معهم... شهريًا يحاسب صاحب العربة بمبلغٍ كبيرٍ من المال، لكنه لا يهمُّه المال في سبيل سلامة ابنه العزيز.

لقد اقترح عليه أحدهم أن يَترك ابنه ينام في القسم الداخلي للمدرسة، ويوفر عليه أجرة العربة الشهرية، لكنه أيضًا لا يطمئن للحياة الداخلية للمدرسة، فهناك تلاميذ أوغاد بعضهم أشد خطورةً من اللصوص، وقُطَّاع الطرق... لقد حدَّثه أصحابه من التجار المقيمين في هذه المدينة عن الكثير من القصص، والحكايات عن تصرفات بعض الأولاد، ولولا الرغبة في العلم، والمعرفة لما سمح لابنه حتى الاختلاط مع الأولاد الآخرين.

بل إنه، ولولا ثقته في «قاسم»، وابنه «أبي بكر» لما سمح له بصداقته، ورفقته، و لم يكن يتصور يومًا أن يترك ابنه – الذي بات شابًا يُعتمَد عليه – يختلط مع الغير، إلا ضمن نطاق محدود، وهو يعلم – وكما قال له «قاسم» يومًا، وحتى التاجر «أبي فهد» والذي استوطن هذه المدينة منذ عقود، ويعرفها جيدا – (إن من الأفضل للأولاد أن نعطيَهم المزيد من الحرية، والثقة، وحتى الاعتزاز بالنفس، وأن نتيح لهم الاختلاط مع الغير، ضمن حدود؛ حتى يتاح لهم المعرفة، واكتساب المهارات، والخبرة، وليس هناك شخص مثالي في الحياة، والإنسان يتعلم من الأخطاء، والتجربة، وحتى المعاناة).

لكنه من حقه أن يخاف على ابنه؛ فلقد بات شابًا، ازداد حسنًا، وشعره الناعم الغزير يُضفي عليه وسامةً كبيرةً، و لم يكن من الصعب «لعبد العزيز» – بدوره – أن يكتشف طبيعة نظرات البعض، الموجهة إليه، والتي ينفذ بعضها إلى داخل جسده، فتشعره بالتقزز من هذه النظرات.

شعر بذلك عندما التصق به ذلك الرجل الشاذ خلال موجة المطر، وأحس بها أيضًا أكثر من مرة خلال نظرات بعض زملاء الفصل، وتعمُّد احتكاك البعض به عند الخروج من الفصل، أو عند دورات المياه.

هل يقول أيضًا إن «مهارا» خادمتهم تنظر إليه بعمق، وإنها مرةً، وهي تغطيه، وهو نائم، شَعُرَ بها تتحسَّسُ شَعْر رأسه... كانت رائحتها المميزة تختلط لحظتها بأنفاسه، وعندما تنبَّه لها انسحبت على حياءٍ، وهي تُحَسِّن من وضع الغطاء على جسده.

ما كاد ينتهي «عبد الرحمن» من احتساء شايه الصباحي، حتى شاهد العربة قادمة... كان صوت جرسها النحاسي يكاد يَطْغى على إيقاع حوافر خيلها، وجلبتها الواضحة في هذا الوقت المبكر من الصباح، وقبل أن ينادي على ابنه، إذا «بعبد العزيز» يقبل عليه، ويقَبِّل رأسه، ويده مودِّعًا، وهو يحمل كتبه، ودفاتره المدرسية، ووعاء طعامه المعدني.

في هذا الأثناء كان في العربة زميله البحريني هاشم، والذي جاء يدرس أيضًا في «مومبي»، ويقيم مع أسرته في الجهة الغربية من الشاطئ، ويعمل والده «فهد» تاجرًا معروفًا في الميناء. صعد «عبد العزيز» العربة بمساعدة أحد الحراس، وسلم على هاشم مبتسمًا، وقال، وهو يحسن من وضع «دكة» قطعة القماش التي تغطي الجزء الأسفل من جسمه.

بدأت الحركة تدب تدريجيًا في الطريق إلى المدرسة، الحوانيت تفتح أبوابها، وبائعو العربات، والطرقات يفرشون بضائعهم بعناية، واهتمام، وارتفاع أصوات ضجيج، وجلبة العربات، وحركة المارة. في هذه الأثناء قال «عبد العزيز» لـ «هاشم»: (البارحة وصلتنا «صوغة» من «الإحساء»، وأحضرت لك منها «حويجه»، سوف أعطيك إياها في فسحة المدرسة... لا، وأزيدك من الشعر بيت؟! لقد أرسل خالي لنا «قلة» تمرٍ... يا الله... تمر «الحساء» في «الهند»، أجل. ماذا تقول لو قلتُ لك إن البارحة أيضًا وصل الوالدَ من «البحرين» ثلاثُ «قلات» تمر، نشوف بعدين تمرك أحسن ولاّ تمرنا).

في المدرسة التقى الأصدقاء: «عبد العزيز»، و«هاشم»، و«أبو بكر»، وكان الرابع صديقهم البصراوي «جلال»، والذي والده «عبد الجليل» يعمل في شركة «الهند» الشرقية مترجمًا، وهو مقيم في «الهند» من عشر سنوات، فلم يتردد إن قام «عبد العزيز» بتوزيع حلوى «الملتوت، والكليجا» على أصحابه الثلاثة كل واحد منهم ثلاث قطع، لم تسعهم الفرحة، وراح كل واحد منهم يأكلها بشراهة ولذة، خصوصًا، والوقت الآن في منتصف الوقت الدراسي، والجوع قد أخذ منهم مأخَذَه، وفضَّلوا أكلَ حلوى صديقهم «عبد العزيز»، على طعامهم الذي أحضروه معهم كعادتهم كل يوم، جميعهم راحوا يُثنون على جودة، وروعة الحلوى البسكويت

التقليدي، بل إن بعضهم خصوصًا «جلال»، و«عباس» قالوا إن أهاليهم يقومون بعمل مثل هذه الحلوى أيام الأعياد، وفي المناسبات الاجتماعية الحميمة، والخاصة، إلا أن – الحق يقال – طعمُ «ملتوت، وكليجا» «الإحساء» لها نكهتها، وطعمها المميز، فعلق «عبد العزيز» بفخر:
– السبب، الخلطة السرية التي تعرفها جدتي – الله يرحمها – والتي نقلتها لوالدتي.

انتظر «عبد الرحمن» بفارغ الصبر موعد ذهابه إلى الميناء للقاء الحاج «سعود»، و«فهد»، وبقية التجار، وأبناء «الخليج»، و«الجزيرة» المقيمين في المدينة، فهم اليوم على موعد للقاء التجار القادمين من «البحرين»، و«العقير» وربما هناك سفن قادمة من «البصرة»، أو «فارس»، ففي السنوات الأخيرة – ومع انتشار ظاهرة القرصنة في مياه المحيط الهندي – تضاعفت عصابات لصوص، وقراصنة السفن؛ لذلك أصبحت السفن التجارية القادمة من «الخليج»، أو «فارس» تتفق على السفر معًا؛ ليشكلوا معًا قوةً تستطيع مواجهة اللصوص، والقراصنة.

سوف يكون يومًا حافلاً بالأخبار، ومشاهدة تجار جدد، وإن شاء الله يكون من بينهم ممن يعرفه من أبناء ديرته، فلقد مضى عليه الآن أكثر من عامين، وهو لا يرى، ولا يلتقي إلا بهذه المجموعة الطيبة من أبناء «الجزيرة»، و«الخليج». نعم. سوف يكون اليوم، وربما الأيام القادمة حافلة بالأخبار

الجديدة عن الأوضاع في البلاد، وغيرها، لقد سمع من «قاسم»، والحاج «سعود» أن بعض الدول الكبرى، «بريطانيا»، و«روسيا» تحاولان التدخل في شؤون بلاد «فارس»، بل إن الإمبرطورية الروسية تسعى باستمرار إلى ترسيخ وجود أسطولها الحربي في «الخليج»، شعورًا منها بأهمية «الخليج»، وأن هناك مستقبلاً باسمًا ينتظر دوله خصوصًا بعد اكتشاف النفط في بلاد «فارس»، وبالتحديد في المناطق الجنوبية الغربية.

مضى يحث الخطى متجهًا إلى الميناء. هاهو الآن على بعد خطوات من السوق، لحظات ويصل لمتجر الشيخ «سعود»، والذي يعتبر حلقة اتصال بين مختلف أبناء «الخليج»، و«الجزيرة» لا ينافسه فيه إلا مكتب «فهد»، ومتجر «قاسم»، وبعض مكاتب أخرى من الوسطاء.

كان الشيخ «سعود» رجلاً تجاوز عقده السادس، تقيًا، مشهورًا في المدينة بالعلم، والمعرفة، وإجادته للغة الهندية، وحتى بعض اللهجات الأخرى، كما كان مشهورًا في مجالات الفقه، والدين، وكثير من أبناء «الجزيرة»، و«الخليج»، والعرب القادمين إلى «مومبي» يلجئون إليه في بعض المسائل الفقهية، أو الاستئناس برأيه، بل إنه لا يتردد أن يعتذر عن إعطاء جواب أكيد على هذا السؤال، أو ذاك الاستفسار، إلا بعد أن يرجع إلى كتبه ومراجعه حتى أن بعض الشركات الكبرى تعتمد عليه في مجالات المشورة، والاستشارة، كان متزوجًا من «أمّ صالح»، وهي سيدة فاضلة

من نساء «الجزيرة»، وقبل سنوات، وبعد مرض «أم صالح» تزوَّج فتاةً مسلمةً، تعود جذور أسرتها إلى بلاد اليمن، ولكنها من مواليد «حيدر أباد»، وله من الأولاد ثلاثة، وابنة واحدة، أحدهم «يوسف» عاد إلى «الجزيرة»؛ ليشرف على أعمال، وأملاك والده هناك، أما الابن الأكبر «صالح»، فهو المساعد الأول لوالده، وشقيقه الأصغر «عبد الوهاب»، فهو الذي يقوم بالسفر إلى ولايات، ومدن «الهند» الأخرى للاتفاق مع المصانع، والورش، والتجار على توريد البضائع، والمواد المطلوبة لتجار «الجزيرة»، و«الخليج»، وحتى الدول العربية كان «قاسم» واقفا على عتبة متجر الشيخ «سعود»، متسع العينين، باسم الشفتين.

رحب كثيرًا «بعبد الرحمن»، وهو يقول:

— لقد تأخرتَ كثيرًا، الجماعة في انتظارك، يبدو أن هناك جماعة من أهل «الإحساء» مع القادمين في المركب أمس.

استقبله الجميع باهتمام كبير، الحاج «سعود»، وبقية التجار، ومجموعة من التجار القادمين، كانوا مميزين بملابسهم، ثيابهم الطويلة، وغُتَرِهم، وعرف منهم التاجر «عبد المحسن»، والحاج «حسن»، وهما من تجار ميناء «العقير»، و«قيصرية الهفوف»، قال «عبد المحسن»، وهو يعتدل في جلسته على البساط الوثير:

– كدنا نتأخر في اللحاق بالمركب من أجل رسالة، وكيلك، لقد تأخر في الوصول إلينا بحجة أنه يجمع النقود من التجار، المهم، نقودك سلمتُها البارحة عند الشيخ «سعود».

ثم بدأ القادمون يثيرون اهتمام الحاضرين بحكايات السفر من «العقير» إلى «البحرين»، ووصولاً إلى «مومبي». مضى وقت طويل عليهم، وهم يتحدثون، ويتبادلون الأخبار، وصبية الشيخ «سعود» يقومون بخدمتهم بتقديم الشاي، وحتى القهوة العربية، والتمر. بعد صلاة الظهر اجتمع الجميع في منزل الشيخ «سعود»؛ لتناول طعام الغداء، وراح كل واحد من التجار يشرح للتجار، والوسطاء المقيمين في المدينة عن رغباتهم، وطلباتهم التي من أجلها حضروا إلى «الهند».

تفوق الشيخ «خلفان» ابن إمارة «دبي» بمداعباته، وأحاديثه اللطيفة، وسخريته من بعض المواقف التي واجهته خلال وجوده في هذه المدينة، وكيف أنه تمنى لو استطاع أن يقنع أبناء المدينة في اختيار الثياب العربية لباسًا لهم بدلاً من القطع القماشية البسيطة التي بالكاد تستر العورة، بل إنه راح يتعجب من قدرة أبناء «الهند» على التحمل، والصبر في سبيل لقمة العيش، والمنافسة على فرص العمل على الرغم من الأعداد الهائلة من القادمين من ولايات، ومدن «الهند» الأخرى، والتي تستقبلها المدن الرئيسية كل يومٍ، وعلى مدار الساعة في منافسةٍ شرسة في مجالات

العمل، أما التاجر «عبد المحسن»، فهو من التجار المعروفين في «العقير»، و«قيصرية الهفوف»، وسبق له أن حضر إلى «الهند» أكثر من مرة، ران الصمت داخل متجر الشيخ «سعود» للحظات خلال تناولهم التمر، وشربهم فناجين القهوة العربية، صمت زاد من تطلعهم لملامح الشيخ «سعود»، في انتظار تعليقه على ما قاله الشيخ «خلفان»، وما ذكره «عبد المحسن»، والحاج «حسن»، ومن معهم ممن حضروا في ذات المركب، الصمت دام لحظات بعدها قال الشيخ مخاطبًا «عبد المحسن»:

– لقد فعلتَ خيرًا بإحضاركم التمر، كنا مضطرين في الأيام الماضية نأكل تمرًا حويلاً، شيء مفرح أن يتمنى المرء شيئا، وما هي أيام، ويجده أمامه، هذه نعمة كبيرة من عند الله، والأهم سلامتكم، ووصولكم بخير، بحر «الهند» معروف بغدره.

فقال له الشيخ «خلفان»:

– كل البحار يا طويل العمر غدارة، نسيتَ – يا شيخُ – أخبارَ غدر البحر في بحر «الخليج»، و«فارس»؟!

فقال «قاسم»، وهو يحتسي فنجان القهوة:

– البحر شيء مخيف، السفر فيه يقلقني، ويضايقني، ويزعج أهلي في وقت واحد، لقد فكرت السفر إلى «حضرموت» أكثر من مرة هذا العام، لكن – يا جماعة الخير – كلما تذكرت قصص البحر، وغدره، وعصابات اللصوص، وقراصنة البحر، أطرد فكرة السفر من ذهني.

ولم يكد ينتهي من كلامه حتى قال «عبد الرحمن»:

- معك حق يا «أبا بكر» لقد واجهتنا خلال قدومنا إلى هنا أكثر من سفينة تتبع عصابات اللصوص، وقراصنة البحر، لكن - الحمد لله - كنا مجموعةً في السفر، ونسير متقاربين الأمر، الذي جعلهم يبتعدون عنا، كان الله في عون المركب الذي يسير في البحر وحيدًا.

وداخل نفسه راح يسترجع تفاصيل كابوس رحلته، وعلى وجه الخصوص لحظات هيجان البحر، وفي أعماق كل واحد من الحضور حكاية حزينة مع البحر، وشعور بالخوف، خوف من عدو مجهول، غامض،، أو خوف من غدر البحر، ومفاجآته المختلفة، ثم امتزجت هذه الحكايات، والقصص، والأحداث مع الواقع المعيش في هذا الزمن، حيث كانت التغييرات الجذرية التي حدثت في هذا الجزء من العالم... «الهند»، «إيران»، «الخليج»، «العراق»، «الجزيرة»، والأطماع المحيطة بها من مختلف الدول الكبرى الساعية لاستعمارها، والسيطرة عليها... فجأة اعتدل الشيخ «سعود»، وقال مخاطبا الجميع:

- يا جماعة، تركونا من مواضيع البحر، ولنذهب لمواضيع الأكل، فهذا وقت الأكل، دعونا الآن نصلِ الظهر، وحيَّاكم الله على شرف الأخوة القادمين، والمقيمين.

وفي حياء يمتزج بالتقدير، والعرفان، شكره الجميع على كرمه، وحسن إفادته، وتوجهوا معه إلى المسجد المجاور للسوق، كل شيء في المسجد ساكنٌ، حالمٌ، فيه رُوحانية الصلاة، والعبادة، أمَّا في المدينة، فكل ما فيها مضطرب متوثب، هنا العبادة، والدعاء، والجماعة، والتأمل، وهناك تحت سماء المدينة الملبد بالغيوم، والرطوبة، والحرارة، التي تظهر عرقًا ناضحًا على الأجساد في ساعات اليوم، ووهج الظهيرة، تحدي، ومواجهات، وصدمات، ومقاومة المحتل الذي اغتصب وطنًا.

المقيمون من عرب، وأجانب، ليس لديهم ما يفعلونه – وعلى وجه الخصوص في هذه الأيام – إلا الوقوف مع أبناء البلد، وكانت هناك مساعدات سرِّية يقدمها أبناء الجالية العربية لرجال المقاومة البواسل.

في المواقف الصعبة، يشعر المقيم في هذا البلد، وغيره، أنه يندمج بهذا الكون، فيأنس به، ويطمئن إليه، وينصهر مع أبناء وطنه الجديد، حتى ولو كان مقيمًا عابرًا، أو لم يحمل بعدُ جنسيته، لقد مضى أكثر من عام على وجود «عبد العزيز»، ووالده في هذه المدينة، وكل يوم ينظر فلا يرى حوله إلا قليلا مما يرى... والده، عمه «قاسم»، وابنه «أبا بكر» شريكه في «رز ليمتد»، «كومار»، «مهارا»، أصحاب والده، حتى الطبيب «جاكوب»، وممرضاته الحسناوات.

عالم محدود جدًا... يحسُّ أنه في عالمٍ صغيرٍ، وتافه، فإذا ذهب إلى المدرسة تكشَّف العالم، وتعرَّى، كما شاهد تلك الليلة «مهارا» خادمتهم عندما سافر والده مع صاحبه «قاسم» في مهمة عمل خارج المدينة، ليلتها وكان وحيدا بالبيت، وهو في غمرة نومه شعر بجسدها يلتصق به... يحتويه، كانت عارية كما ولدتها أمها، جميلة، رقيقة، وفاتنة في ذات الوقت، كان في البداية يتخيل نفسه يحلم، وما أكثر ما حلم بالفتيات اللاتي شاهدهن في المدرسة، وفي بعض البيوت التي أتيح له زيارتها، حتى فتاة المطر حلم بها أكثر من مرة، لكنه الليلة شعر بجسد المرأة... نعومته، طراوته، لم تُتِحْ له الفرصة أن يقاومها.

أخبرته بأنها شديدة التعلق به من أيامها الأولى في خدمتهم، الليلة فرصتها الوحيدة للتعبير له عن حبها، كاد يقول لها إنه ليس حبًا بل اغتصابا.

كان الجميع يتطلعون إليه بدهشة، وحسدٍ كبيرين، وهم يستمعون إلى روايته المشوقة، وطالبوه بالمزيد، ونظرات عيونهم فيها أشياء، وأشياء. توقف «عبد العزيز» باسمًا، ثم أردف يقول:

- لقد أشعرتني هذه المرأة على الرغم من صغر سني، وسذاجتي بأن المرأة قادرة على السيطرة على الرجل في مثل هذه المواقف. إنها القادرة، ورفيقها العاجز.

قاطعه «سعد»:

– أعتقد أن «مهارا» كانت شديدة التعلق بك نوعًا ما، وأظنك تشاركها الرغبة.

أجابه «عبد العزيز»:

– كلا. لقد كنت صغيرًا أيامها، و لم أعبأ بها، وإنصافا للحقيقة كانت جميلة، بل فاتنة، لكنها تعتبر واحدة منا، لقد اعتبرتها قريبة لي... حسنا، ربما يومًا ما شعرت برغبة فيها، فهي دائما تتردد لغرفتي، وعلى الأخص في أوقات متأخرة من الليل، وكنت أتصور أنها تتأكد من وجودي داخل غرفتي، أو أنها تحسن من وضع الغطاء على جسدي، لم أتصور أن يحدث لي معها مثل ما حدث تلك الليلة، لقد اغتصبتني كما تغتصب الدول الكبرى الدول الصغرى، وما أكثرها في هذا الزمن.

فقاطعه «أبو عبد الوهاب» ضاحكًا:

– ما أروع الاغتصاب إذا كان بهذا الشكل.

فضج المجلس بالضحك.

في المدرسة، ووسط المئات من الطلبة القادمين من مختلف أنحاء المدينة، وحتى من المدن، والقرى الأخرى، وأبناء الجاليات من المقيمين فيها، هنا خليط من البشر يمثلون مختلف الديانات، والأطياف، والفئات، المسلم،

والمسيحي، والبوذي، والهندوسي، وبقية الديانات الأخرى، وما أكثرها هنا في هذا البلد.

يذكر جيدًا حديث الشيخ «سعود»، وهو يقول يومًا:

– هنا قد تجد لكل مواطن ديانة، إلا أنهم يشتركون في شيء واحد، هو انتمائهم لهذه الأرض التي اغتصبها الإنجليز؛ لذلك فلا عجب أن تجد الجميع يرغب، ومن أعماقه الخلاص من هذا الاغتصاب البغيض.

لقد تعلم «عبد العزيز» اليوم شيئًا في المدرسة، هو قصة «غاندي»، وبداية ثورته، لقد أخبره مدرس العلوم أن «غاندي»، ويوم تخرجه من مدرسة حقوقية بريطانية، ركب «غاندي» قطارا، وهو في كامل أناقته، وكله فخر، واعتزاز، بإنجازه العظيم، فإذا بريطاني أبيض يطلب من عامل القطار طرد هذا الهندي من القطار بكل تعجرف، متناسيًا كبرياء الشاب الهندي «غاندي»، وهكذا حصل أن ألقوا بـ«غاندي» خارج القطار، عندها قرر في قرارة نفسه أن يلقي كل الإنجليز خارج «الهند»، ونبذ كل ما هو إنجليزيٌّ من يده.

وعند عودة «غاندي» لمسقط رأسه، بدأت الجذور الأولى لثورته الكبرى، والله الذي جعل الآية معجزة في القرآن، هو الذي جعلها في البعض من الناس، فكانت قدرة هذا الإنسان النحيل على قيادة ملايين البشر في هذه الأرض، وتحقيقه معهم حلمه في تحرير وطنه المغتصب من الغزاة المغتصبين.

تعلم ذلك «عبد العزيز»، وأكثر من ذلك خلال دراسته في «الهند»، فكانت هذه الدراسة النافذة الواسعة التي أتاحت له معرفة الكثير عن العلم، وفهم جوانب عديدة من الحياة، فهو الآن يستطيع أن يفهم ما يدور في مجلس الشيخ «سعود»، أو العم «قاسم»، أو «فهد»، أو حتى أحاديث الشيخ «خلفان» عن وجود الإنجليز في «دبي»، و«أبو ظبي»، و«الشارقة»، وغيرهم من المشْيَخات الخليجية، يعرف الآن مغزى هذا التواجد، ورغبة الإنجليز في احتلال العديد من الدول في العالم، وعلى الأخص هذا الجزء الهام، إنه النفط.

هذا الذهب الأسود الذي تدور حوله كل السياسات، والاستراتيجيات، وحتى الأزمات، هو وراء اغتصاب «العراق»، و«إيران»، و«الهند»، و«الخليج»، لقد احتل هذا الذهب الأسود بعد تجارب الحربين العالميتين، الأولى، والثانية، دورًا أساسيًا في هذا التواجد، ليس المجال للإشارة إليها هنا فهي أمور باتت معروفة، إلا أنه يذكر جيدًا أحاديث التجار في هذا المجلس، وأحاديث زملائه في المدرسة، وما بعد المدرسة، ويذكر جيدًا تلك القصة التي رواها السيد «عبد المحسن» عن قصة الرجل الذي أحضره معه من البلاد لمعالجته بتوصية من أحد معارفه من التجار، والذي كان على علم به قبل أن يصاب بلوثةٍ، ومرضٍ نفسي.

بل هناك من اتهمه بالجنون، وطالب بحبسه خوفًا من أن تبدر منه تصرفات غير معقولة، أو مقبولة، أو تصرف أهوج... لحظتها نظر «عبد العزيز» إليه مستفهمًا، فقال بثقة:

- هذا الرجل مريض، تكفل بمصاريف سفره، وعلاجه أبو، وهو رجل خير من أهل الديرة، كان يعرفه تمامًا قبل أن يبتليه الله، بهذا المرض النفسي، كما قال الدكتور «استورم»، وعلاجه الوحيد أدوية نفسية، مع تغيير المكان الذي يذكره بما حدث له... كان الله في عونه.

وراح يروي لنا قصته، التي كانت قصة مثيرة، وغريبة، ولكنه أكد كونها قصةً حقيقيةً، حدثت قبل سنوات، وبطلها المسكين جاء يبحث عن علاج.

القيصرية

مداخل عديدة تؤدي إلى «قيصرية المبرز»، سوقها الوحيد، والكبير، والذي يبدو من الخارج قليل المساحة، ولكن إذا دخل إليه المتسوق؛ تاه بين محلاته العديدة، وبضائعه الكثيرة، إلى حد أنه لا يستطيع أن يأتي على مشاهدة كل محلاته، حتى ولو بالنظر من خلال واجهات المحلات ذات الأبواب الخشبية التي تطاير بعض من ألوانها، وتآكلت بعض ألواحها بفعل الزمن، وحرارة الطقس، والجو، على الرغم من فتحات التهوية العلوية الموجودة بجوار السقف المصنوع من أعمدة الكندل، وجذوع النخيل، والبواري، والمداد.

السوق في حالة ازدحام مستمر، فهناك المئات من المتسوقين من أبناء المدينة، ومن أبناء البادية الذين يسكنون خارج السور في منطقة «الحزم»، أو بالقرب من «عين نجم»، أو مخيمات «محاسن»، وهناك من يأتيها من المدن الأخرى رغبةً في شراء ما تعرضه محلاتها في هذا السوق من مصنوعات، ومنتجات تقليدية متميزة كالمشالح، والعِبي، وحتى الأدوات التقليدية الأخرى، والتي أبدع في إنتاجها، وعملها أبناء «المبرز»، أو العاملين لديهم، فهنا تستطيع أن تجد أفضل البنادق، والخناجر، والسيوف.

حتى صناعة الذهب، والمجوهرات لها حوانيتها، ومبدعيها في هذه «القيصرية» التي تشبه خلية النحل لما فيها من نشاط، وحركة تبدأ منذ ساعات الصباح الأولى، فأنت تشاهد التجار، والباعة، والحرفيون، والسماسرة، والدلالين، وحتى رجال الشرطة بملابسهم العسكرية الكاكية، وغُتَرِهم الخضراء، نعم. تشاهدهم قادمين من الجامع الكبير، جامع الإمام «فيصل بن تركي»، فيسعون بعد الصلاة في مناكبها.

بعضهم يعود إلى بيته بعد أن يشتري خبز الصباح من أشهر الخبازين في المدينة... «الضمن»، أو «ابن شعلان»، ويعود لبيته ليتناول فطوره، وما تيسر له من طعام مع أفراد أسرته، وهناك من يذهب إلى مقر عمله في السوق، أو غيره، أو إلى مزرعته.

المدينة يحيطها سورٌ كبيرٌ، كأنه حزام، لكنه من الطين، والأحجار، مدعمٌ بعددٍ لا بأس به من القلاع التي تتيح – من خلال نوافذَ فيها من أعلى – مشاهدة القادمين، أو المغادرين، إضافةً إلى فتحات خاصة بإطلاق القذائف من خلالها، كانت كما قال له جده يومًا إنها استعملت خلال فترات بعيدة في عهد العثمانيين، وتوجد بالسور ثماني بوابات، تسمح بالعبور إلى داخل المدينة، هي بوابة «الحزم»، وبوابة «عين نجم»، وبوابات «المقصب»،و«المقابل»، و«القديمات»، و«الشعبة»، و«الحارة»، و«العتبان».

كانت هذه البوابات تغلق بعد صلاة العشاء، وتفتح مع صلاة الفجر في السوق، حيث يعتبر ملتقى الجميع، فلابد من المرور به لشراء احتياجات البيت اليومية، خاصة في وقتٍ لم تكن الكهرباء موجودةً في مدينته، مما يضطر الأهالي إلى شراء احتياجاتهم الغذائية طازجة من السوق، هذا المرور اليومي على السوق، جعل الجميع على اطّلاع كبير، وواسع، بما يجري في المدينة من أخبارٍ، وحوادث، فالجميع يعلمون من تُوفيَ اليوم في حارة «العتبان»، ومن قَدِم من خارج المدينة اليوم من بوابة «نجم»، ومن هو الذي باع، أو اشترى تمرًا من سوق القلعة.

ونشاط «عطعط» الذي يقوم كل صباح، ومساء – خاصة بعد صلاة العصر – برَشِّ الماء من قربته التي يحملها على ظهره في مختلف طرق السوق. رجلٌ نحيلٌ، ووسيمٌ جدًا، عروق يديه، ورقبته واضحة بصورة ملفتة، كأنه لم يأكل منذ زمن بعيد، غترته البيضاء تحول لونها مع الأيام إلى لون رمادي، يلفُّها بحرفيةٍ حول رأسه الذي بدت بعض شعيراته الناعمة مسترسلة على جبهته، ووجنتيه.

جميع تجار، وباعة السوق يعرفونه، بل جميعهم يحبونه، ويقرِّبونه من أنفسهم، لأسبابٍ يجهلها البعض، وهناك من يدعوه لزيارته في مجلسه بعد صلاة العشاء؛ لما يمتاز به من لطف، وذاكرة قوية تحفظ كل الأحداث التي مرت بها المدينة، بل ويستطيع أن يخبرك عما يحدث في شرطة المدينة،

ومن هو موقوف فيها ومن سوف يجلد في سوق الأربعاء لارتكابه جريمة تستحق الجلد، حتى الأخبار الحميمة، والخاصة ببعض الأُسر التي يقوم بتزويدها بالماء يعرفها، فهو يعرف إذا كان هذا البيت قد طبخ في الغداء، أو العشاء، سمكًا، أو دجاجًا محشيًا، فلديه حاسة شم قوية عوضت كثيرًا من ضعف نظره.

مع أنه لم يحدث له أبدا أن تعرض لمكروه، أو اصطدم بحائط، أو حاجز، وهو يمارس عمله في السقاية للبيوت، وزبائنه الكثيرون في المحلات، والحوانيت، أو عند ممارسته لعمله في رش الماء في طرق السوق الترابية، وهناك من يعتبره مهرجَ المجالس الليلية لدي الناس «الزغرتيه»، بل إنه يتحول في هذه المجالس إلى شخص آخر مرح يجيد الأحاديث الفكهة، وتقليد أصوات التجار، والباعة.

بل إنه استطاع أن يكسب خمسة ريالات فضة في جلسة واحدة من أحد الميسورين عندما استمع إليه، وهو يقلد صوت أحد كبار ضباط العسكر الأتراك، بل حتى إنه أجاد حركة يديه، وطريقته في مسكه لعصاه الخيزران، ومن تلك الليلة صار «عطعط» صاحبًا لهذا التاجر، والذي بات يؤْثر حضوره لمجلسه بصورة دائمة في بيته الكبير داخل المدينة، أو في بستانه، حيث يوجد فيه بيت أشبه بالقصر الصغير.

تعود التاجر أن يذهب مساء كل أربعاء إلى البستان، ويسهر هناك مع أصحابه، وبعض معارفه المقربين، ومعهم المهرج «عطعط» الذي يبدع في الرقص الرجالي «الزفان»، كما يبدع في تقليد أصوات المطربين، «محمد فارس»، و«محمد عبد الوهاب»، و«ناظم الغزالي»، بل إنه يحول الجلسة إلى جوٍّ من المرح، والمتعة لا يقاومها حتى المتزمتين، والمحافظين، بل إن بعضهم لا يستطيع، وهو يشاهد إبداعاته، وحركاته عندما يرقص، إلا وأن يتجاوب معه بهز أكتافه على استحياء، وهناك من يفرقع أصابع يديه من شدة الانسجام، بل هناك من لم يتردد أن يشاركه الرقص، وهو يخفي وجهه عن عيون الآخرين.

بعضهم اعتبره فرقةً موسيقيةً متكاملةً، فهو المطرب، والعازف، والراقص، وهو قبل هذا، وبعد هذا، مهرجُ الجميع، ويا ويله، وسواد ليله، من لا يقدِّم له في الجلسة نقودا، ولا يهم عنده المبلغ إذا كان كثيرًا، أو قليلاً، المهم، أن تعطيه، وأنت أكثر سعادة، ورضًا، وإلا فسوف يشنِّع عليك، أو يقلدك، وربما نقل أخبارك الحميمة إلى رواد سوق «القيصرية»، وما أكثر معارفه من أصحاب الأخبار، والعلاقات الحميمة.

ومع أن الجميع كانوا سعداءً، بل أكثرهم كان يضطر للسلف من أصدقائه، أو معارفه في الجلسة؛ ليعطيه ما تسلفه إياه عن طيبِ خاطر، حتى أن «أبا سالم»، أحد رواد الجلسة في مجلس العم «ناصر»

قال هامسًا لصديقه «أبي خالد»:

– يبدو أن «عطعط» سحرنا... ما يقدر الواحد منا يقاوم سحر حركاته، وفكاهاته، وتعليقاته، والأهم تقليده.

أجابه:

– القصص اللي تُروى عنه كثيرة.

قاطعه «أبوسالم» متشوقًا:

– أرجوك يا «أبا خالد» نفسي أعرف بعض هالقصص، والحكايات.

ضغط «أبو خالد» على كتف «أبي سالم»، وهو يبتسم في ود.

– مدام الليلة إحنا نايمين هنا في بستان «أبي ناصر»، أبْشِر بعد ما نقوم من الجلسة، أوَصِّي الصبيان يفرشون فرشنا جنب بعض.

شكره «أبو سالم» ممتنًا، وهو يهز رأسه طربًا من غناء «عطعط»، ويمنِّي نفسه بسماع قصص «عطعط» المضحكة، والمثيرة.

«أبو عبد العزيز» الجالس بجوار «أبي سالم» وضع إصبعيه في فمه، وراح يُصفِّر بسعادة، صفيرًا متقطعًا، كأنه يحاكي عزف «عطعط» على العود، وهو يغني أغنية «عبد الوهاب» «هان الود»، كانت سهرةً ممتعةً، استكملوها بالاستماع لـ«السحارة» الساحرة كما يقول عنها «أبو وهب»، فهو يموت، ويتجلى، وهو يستمع لأغنيات «أم كلثوم»، و«أسمهان»، بل يصل لقمة

طربه عندما يستمع لأغاني «عبد اللطيف الكويتي»، و«عبد الله فضالة»، وفي ختام سهرتهم التي امتدت حتى ساعة متأخرة من الليل، جاءت صواني الأكل، والتي تتكون من لحم التيوس المشوية «المندي» مع الرُّزِّ البلم، إضافةً إلى مرق اللحم بالقرع الأصفر، التي اشتهرت به المنطقة.

كان أول شيء عمله «أبو سالم» – بعد أن تمدد على فراشه في سطح بيت بستان «أبي ناصر»، بعدما خلع ثوبه، وارتدى إزاره المقلم بألوان زيتية، وبنية، وسوداء، تأخذ شكل الخطوط المتقاطعة، وراح رابطًا، وسطه بجزء منه – أن نادى على صديقه «أبي خالد»، من بعيدٍ جاء صوت «أبي خالد»، وكان قد ذهب إلى أسفل لإحضار إحدى جرار الماء الصغيرة «المصخنة»، فهو دائمًا بحاجة إلى شرب الماء، ولا يستطيع أن ينام بدون أن تكون بجواره «المصخنة»، فعندما يشعر بحاجته لشرب الماء يجده بجانبه.

حرك «أبو خالد» رأسه في الهواء، وتحركت غُتْرَته «أم نقده»، ذات الزهور البيضاء المطرزة فيها، وقال باسمًا:

– لا تخاف أنا جايك، وعلى وعدي معك، لكن – الله يكرمك – رحت أتبول قبل ما أنام... ما أخفي عليك صرت هالأيام أشرب ماء كثير، وأبول كثيرًا، ما أدري ليه؟!

خلع «أبو خالد» ثيابه، وراح يرتبها بتؤَدَّة... ثوبه، غترته، وعقاله، ووضعها تحت فراشه، حسَّن وضع وسادته، ثم أخرج من جيبه زجاجة دهن عود

صغيرة، فتح مرودها، ومسح وسادته، ثم أعاد المرود داخل الزجاجة، وسحبه مرة أخرى، وناوله «أبا سالم»، وقال له:

— أمسح وسادتك... ريحة الطيب تذكرك بالحبيب.

ضحك «أبو سالم»، وهو يمسح وسادته بالمرود المفعم بدهن العود، وقال بعدما جلس، وحمل وسادته، واحتضنها، وقال باسمًا:

— الله يغربل شرّك يا «أبا خالد»! لابد تذكرنا بالحبيب، وينه الآن، عن ها لجوّ الزين، وفي هذا السطح البارد.

سكت بعد تنهيدة طويلة، ومثيرة، تطلع إليه صاحبه، وهو يشعر بفخرٍ، أنه أستطاع أن يحرّك شجون صاحبه «أبي سالم»، وقال مبتسمًا:

— بس أنت اللي تبقى الحبيب، كلنا في الهواء سواء.

(تعال، تعال... تمدد، وارتاح) قالها «أبو خالد»، بعدما أعاد وسادته لموضعها، وتمدد بجسمه على فراشه، قبل أن يتمدد «أبو خالد» على فراشه، إذا بـ«أبي ناصر» صاحبهم، وصاحب البستان، يصعد إليهم، وهو يعبر لهم عن سعادته بحضورهم الليلة، فلقد استمتع الجميع بهذا الحضور المتميز، قاطعه «أبو سالم» شاكرًا، وممتنا على كرمه، وحسن الخدمات التي قُدِّمَت في السهرة، وقال:

— بس المتميز يا «أبا ناصر»، الخطير «عطعط»، ما تقول لي منين جبتوه، ما شاء الله، فرقة كاملة!

شعر «أبو ناصر» بسعادة، واعتزازٍ، لأنه يملك شيئًا مميزًا، يعتز، ويفاخر بينه، وبين أصحابه، ومعارفه من التجار، والأعيان، فالمال، والجاه، والبساتين موجودة لدي العديد منهم بل إن بعضهم حتى لو أقام «عزيمة»، وخسر عليها الكثير من المال، تعتبر عزيمته، وسهرته عادية لا تحمل جديدًا، وتميزًا، كما تحمل سهراته مساءً كل يوم أربعاء من كل شهر.

إنه – ومن خلال «عطعط»، هذا الفلتة، الموهوب – يتميز عنهم، بل إنه استطاع أن يقنعه بأن لا يقبل إغراءات الآخرين، وأنه مستعدٌ لتوفير كل ما يطلبه، أو يحتاجه من مال، حتى الزواج، مستعد أن يساعده إلى أبعد مدى، ومع الأيام، أصبح من ضمن أعمدة سهرته الشهرية، لا يمكن أن يضمن حضور أحد من أصدقائه الخلص، إلا عندما يؤكد لهم وجود «عطعط» في هذه السهرة.

يذكر جيدًا أنه في العام الماضي اضطروا لتغيير موعد السهرة حتى يضمنوا وجوده معهم، فقد كان مهرجهم الكبير مطلوبٌ عند أحد معارفه الأعزاء، والذي لم يستطع أن يعتذرَ له، لأنه بداره، قام بتقبيل رأسه، وهو يردد:

– قل تم يا «أبا ناصر»، قل تم!

وعندما قال له:

– تم.

طلب منه باسمًا أن يعيره «عطعط» تلك الليلة، لقد أسقط في يده ماذا يفعل، وحمد الله أن طلب صاحبه كان في الصباح، مما أتاح له الفرصة لأن يرسل أحد صبيانه إلى كافة معارفه، وأصدقائه مع موعد جديد، للظروف الطارئة التي تسبب فيها غياب «عطعط الخطير» كما كان يحب أن يناديه.

اقترب «أبو ناصر» منهما، وقال:

— اكتشفت «الخطير» في ليلة من ذات الليالي، كنا في سهرة لطيفة عند أحد الأصدقاء في بستانه في «الشراع»، وقلد لنا شخصيةً معروفة، وغنى، وعزف، وأبدع، الأهم، أنه طَيَّر الضيق من نفوسنا، كانت أخبار «هجوم اللصوص» أشبه بغمامة سوداء تجثم على صدورنا، فكثير من التجار خسروا أموالهم، وكثير من معارفنا من النواخذة مات بعض رجال الغوص لديهم، وفقدوا صبيانهم ليلة هجوم اللصوص، وقُطَّاع الطرق على القافلة العائدة من «العقير»، عندما كانوا في طريق عودتهم في قافلتهم، من الجمال، والبغال، والحمير، يحملون البضائع، وما حصلوا عليه من خير المغاصات البحرية، لقد فاجأهم، وهم في الطريق عشرات اللصوص، الذين كانوا يمتطون، جمالهم، وهم مسلحين ببنادقهم، وسيوفهم، وخناجرهم كانوا مختفين خلف الكثبان الرملية، ورغم الجهد الكبير الذي بذله حراس القافلة، إلا أن

عدد اللصوص من البدو كان كبيرًا جدًا، مما أدّى إلى موت أعداد كبيرة من أفراد القافلة، والقليل منهم من فرَّ هاربًا، تاركًا بضاعته، وممتلكاته، كان هذا الهجوم قويًا، وقاسيًا على أصحاب القافلة، بل إن أعدادًا كبيرةً من رجال حرس القافلة من العساكر الأتراك، قضوا نحبهم في هذه المواجهة التي تسببت في موت العشرات من الناس من النواخذة، والتجار من أهل الديرة، ومن أهالي «نجد»، كانت أيامًا سوداء عاشتها المدينة، وغيرها من المدن الأخرى، كان الأمن ضعيفًا في ذلك الوقت، ولم يكن أبناء القبائل في حينها يضعون اعتبارات تقديرية، وإنسانية، ودائمًا ما تُخلف مثل هذه الأحداث المؤسفة الكثير من الضحايا، والموتى من الرجال الشباب، والتسبب في خراب الكثير من البيوت البسيطة التي كانت تعيش على خير البحر، والتجارة، وعمل أبنائها في البحر، أو العمل في دول «الخليج»، كانت القافلة، تلك الليلة الحزينة، فريسةً سهلةً للصوص القوافل، وقطاع الطرق، في زمن القوة فيه للكثرة، ومن يحمل سلاحًا أقوى. هذه الحادثة لم يشهد أبناء المنطقة لها مثيلاً، وهكذا تأثر الناس بطريقة مباشرة، وغير مباشرة، وبعد أسابيع، كان الأصحاب قد قرروا التخفيف من همومهم، بقضاء وقتٍ تسليةٍ بريئةٍ، في بستان أحدنا، فكان اللقاء الأول مع «الخطير»، ومنذ تلك الليلة، احتفظت به، مع أني، وحتى اليوم لا أعرف عنه الكثير.

قال ذلك «أبو ناصر»، وهو يتكئ على سور السطح، عندما قال له «أبو سالم»:

– لو تحب يا «أبا ناصر» تعرف المزيد عن صاحبك «الخطير»، تفضل اجلس معنا، «أبو خالد» عنده الكثير من خفايا، وقصص «الخطير».

قالها بثقة، وهو يرمقه بنظرةٍ فيها شيء من الرجاء... مدَّ يده إليه في محاولة دعوته للجلوس معهما، لحظات، وإذا «أبو ناصر» يجلس إلى جوارهما، بعد ما غَيَّرا من وضعيتهما، وأصبحوا الثلاثةُ متقابلين، لكنهم في حالة استرخاءٍ على الوسائد.

قال «أبو ناصر»:

– تصدقون – يا جماعة – لم أكن أرغب الصعود للسطح، شلة البيلوت طالبة ألعب معاها، بس قلت أسأل عنكم، يمكن تحتاجون شيء، أثر عنكم أشياء، وأشياء أنا محتاج لها.

وأضاف:

– «الخطير» لي معه سنوات، بصراحة، ما شفت منه إلا كل الخير، بس أعطه كم ريال فضه، وتشوفه في كل شيء لبلب، علشان كذا سميته «الخطير».

أجابه «أبو سالم»:

– معاك حق تسميه «الخطير»، الرجل – والحق يقال – خطير، ولديه مواهب عديدة، لو أنه في بلد ثاني؛ يمكن يطلع منه أكثر... تعرف ظروف، وتقاليد الديرة، ونظرة الناس المتزمتة لمن عنده مثل مواهبه الكثيرة، وبصراحة أنا حبيته، وأشعر أنه ساحرني بحركاته، وطريقته في العزف، والرقص «الزفان»، والأهم، قدرته على تقليد الأصوات، والحركات.

يخلع «أبو ناصر» ثوبه، ويضعه بجانبه، ويقول موجهًا كلامه لـ«أبي خالد»:

– المهم، أنكم شوقتموني لمعرفة المزيد عنه، والأهم، أريد أعرف أصله، وفصله؛ لأنه صار تقريبًا واحد منًا، ومن الواجب، بل من المفروض نعرف عنه كل شيء، مع احترامنا لعلاقتنا معه.

– معك حق يا «أبا ناصر»، إنك تحب أن تعرف المزيد عن «الخطير»؛ لأنه صار تقريبًا من أهل الدار مثل ما يقولون، وبيني، وبينكم، أنا أعرف بعض الأشياء، والحكايات عنه، بس مازال هناك الكثير اللي ما أعرفها عنه.

وأضاف، ويده تداعب سبحته ذات الأحجار الصغيرة، والألوان الليمونية:

- الناس يا «أبا ناصر» أولاً محتارة في أصله، ناس تقول أصل أبوه تركي من العسكر، وناس تقول أبوه بدوي سرى على نخل فيه حريم، واغتصب فتاة منهم تحت تهديد السلاح - الله لا يبلانا - وكان هو النتيجة، لكن الشيء الأكيد، أنه ما هو من أهل الديرة، صحيح أنه مولود فيها، بس أصله غير، ما تشوف ملامحه؟! فيها اختلاف تقريبًا عن ملامح أهل الديرة.

قاطعه «أبو ناصر» قائلاً:

- أنا مع الاحتمال الأول، أن أصل أبيه تركي؛ لأنه مرة أحضر لبيتنا صحن حلاوة، قال إنها حلوى تركية، ولما سألته من أين أحضرتها، قال (أنا اللي عاملها)، وتحبون الصدق كانت الحلوى حلوة.

أخذ «أبو سالم» نفسًا عميقًا، وقال:

- ألم أقل لكم أن الرجل فيه شيء من السحر؟! حتى الحلوى يجيد عملها، لا وحلوى تركية، ومع هذا ما يهمنا أصله، وفصله، أنتم بتزوجونه بناتكم؟! أهم شيء نعرف أخباره، وقصصه.

(نعم)، قال «أبو خالد»، وأضاف:

- ما يهمنا أصله، وفصله، المهم، تعامله معنا، و قصصه، وحكاياته... قبل سنوات، كنا معزومين في بستان على بعد مسافة من «عين أمّ سبعة»،

وقبل العشاء قررنا أن نذهب للعين للسباحة خاصة، والجو تلك الليلة كان لطيفًا جدًا، وعندما كنت أسبح لفت نظري أحدهم، كان يغسل ملابسه بعيدًا عنّا في الجهة الشمالية حيث المجرى الكبير، وكان يغني بصوت عذب، وخفيض، من باب الاستطلاع، رحت أسبح في اتجاهه، وتجاوزته عابرًا الجسر المقوس، وعند عودتي خففت السباحة، ورحت أتنفس الصعداء، وأشعره بطريقة، أو أخرى أنني قد تعبت، توقفت إلى جانبه، وقلت له (ما شاء الله صوتك رائع)... ابتسم، وشكرني، ورحنا نتبادل أطراف الحديث خاصة في مجال الغناء، وإذا بي أقول له، وصورة مشوشة في خيالي عن شخص فيه شيء عن ملامحه يقوم برش الماء في السوق... نفس الملامح تقريبًا، الشعر الناعم المنساب على الجبين، لون البشرة الفاتح الذي يميل كثيرًا للبياض المشرب بحمرة، حتى عينيه فيها شيء من الضعف، لكن الذي أمامي أكثر وضوحًا، ونظافة... سمع كلماتي، وابتسم بخبث، وقال(فيك من يكتم السر) قلت له (نعم) طلب منّي أن اقسم بالله أن يبقى هذا السر بيننا، فأجبته لطلبه، فقال لي (لا وقت لدي الآن للحديث لك بشيء لكن أخبرني أين أنت ساكن، وأحضُر إليك على أن يكون الوقت بعد صلاة الظهر)، اتفقنا على الموعد، ويوم الزيارة، بعد أن أخبرته عن مكان البيت، بعد أيام، وحسب الموعد إذا به يأتي راكبًا حمارته البيضاء المخضبة بالحناء،

وعليها أربعة قرب ماء، كان نفس الشخص صاحب الصورة المشوشة التي تذكرتها تلك الليلة، عندما شاهدته في «عين أمِّ سبعة»، نعم. كان الشخص الذي يقوم برش الماء في طرقات «القيصرية»، والسوق، والمنطقة المحيطة بالجامع، رحبت به، وعلامات الدهشة ترسم علامات الاستغراب أمامي، أوقف حمارته داخل الدهليز الخارجي للبيت، وربطها في حلقة الباب النحاسية، ثم طلب مني أن أسمح له بتفريغ قرب الماء في «الجب» الفخاري الكبير، حيث يتم تجميع مياه الشرب فيه، قام بعمله بسرعة، وقال (بشِّر يا عم، عسى فيه أكل)، أجبته، وأنا مازلت أعيش دهشة المشاهدة (الحمد لله الخير كثير)، طلبت منه أن يتفضل في المجلس، تملكني إحساس بأنني أمام شخصية غامضة، وغريبة، لكنني كنت بحاجة ماسة لمعرفتها، وسبر غورها، أردت أن أعرف الكثير عنه، كان واثقا من نفسه، وفيه كبرياء، فجلس في صدر المجلس بعد أن فك رباط ثوبه، الذي كان مربوطا من الوسط بحزام من الجلد، لونه يميل إلى السواد، تناولنا الغداء، وكان كبسة سمكٍ محمر، وبعد أن تناولنا القهوة، اعتدل في جلسته، وراح يتحدث، وعلامات الصدق واضحة في عينيه... (الأقدار لعبت كثيرًا في حياتي، وكل يوم تعلمني، فالله كتب عليَّ أن أعيش في بيتٍ كنت فيه الولد الوحيد لأمٍّ مقطوعة من شجرة، فوالدي – رحمه الله – كان

أحد العسكر الذين رمت بهم الأقدار للحضور مع الحامية التركية، الذين حضروا إلى هذه الأرض الطيبة، وبعد أن تعرف على جدي والد أمي، كتب الله أن يتزوج والدتي مع أن صعوبات عديدة، واجهته في الزواج؛ لأن المجتمع هنا لم يكن يؤيد زواج ابنة الديرة من أجانب، فكيف، وهو غريب، ومن «تركيا»، ومن رجال العسكر؟! بعد تعبٍ، وأخذٍ، وردٍ، تزوجتْه، والدتي كما قالتْ لي عندما بدأتُ أعي، وأكتشف ما حولي، وأبحث عن الحقائق، خاصة في غياب أي صلة بيني، وبين أعمامي، إضافة إلى انقطاع علاقة والدتي بأسرتها بعد موافقتها على الزواج من والدي، في البداية كانت العلاقة متوترة، أيام حياة جدي، ولكن بعد وفاته، انقلب أخوالي، وأفراد أسرتي عليها، حتى نصيبِها في «غرافة» بطريق الحقل استولَوا عليه، ولولا أن الوالدة تعلمت من والدي –رحمه الله – عمل الحلويات التركية، والشامية، وبعض المأكولات الأخرى مثل الكباب، وعندها كم جنيهٍ ذهبًا، محفوظين في حفرة، في حُوش «الغنم»؛ لما استطاعت تربيتي، أو حتى العيش إلى أن اختارها الله إلى جواره بعد حياة مليئة بالحزن، والألم...

أولاً: هناك من يقول إن والدي عاد إلى مسقط رأسه مع آخر حملة للعسكر غادرت ميناء «العقير» على أساس أنه سوف يعود للعيش معنا بعد أن يحصل على حقوقه الوظيفية، ونصيبه من ممتلكات والده،

وتمضي الأيام، و الشهور، ولا أثر له، ولا حتى خبر... وثانيًا: هناك من يؤكد أن والدي قُتل من قبل لصوص القوافل، وقطاع الطرق خلال اشتراكه في حراسة قافلة تجارية متجهة إلى «العقير»، ودفن في مكان ما في الطريق... وثالثًا: العلاقة المتوترة بل، والتي تحولت إلى انقطاع صلة الرحم، بين والدتي، وبين إخوتها، وأخواتها، وحتى جميع أفراد أسرتها، ونظرًا لأنني كنت وقتها طفلاً، صغيرًا، لم أكن أعي ما حولي، وما يحاك من مؤامرات، ودسائس لوالدتي من أسرتها، وبطريقة ما، وجدنا أنفسنا بدون بيت، وقيل لوالدتي إن والدي سبق له، وأن رهن البيت حتى عودته من سفره، ونظرًا لمرور عشر سنوات على عدم حضوره، فالبيت يصبح بطريقة شرعية ملكًا لصاحب المال، حاولتْ والدتي التي بدأت تعاني من أمراض لا أعرفها إقناع أخوالي، وأبناء الحلال، وما يقال عنه صاحب المال، بأنه أبدا لم يذكر لها يومًا ما أنه يريد الاقتراض من أحد؛ لأنه كان ميسور الحال، فكان يتاجر في سوق «الزل» بعد نهاية دوام عمله في العسكر، وفي هذا السوق تعرف على جدي، حاولتْ، وحاولتْ لكن دائمًا الحق في بعض الأوقات يكون من نصيب القوي، وصاحب العزوة، وأخيرًا استسلمت الوالدة لقدرها، وطلبت فقط أن يمهلوها شهرًا على الأقل حتى تبحث عن سكن جديد، وبعد بحث، وجهد، وجدنا بيتًا صغيرًا في أحد

«الفرقان» البعيدة عن فريقنا، وانتقلنا إليه، وكان عمري وقتها الحادية عشرة، ومازلت أذكر كل تفاصيل ذلك اليوم الحزين على والدتي، فلقد بكتْ كما لم تبكِ من قبل، لقد بكت سنواتِ زواجها، وذكرياتها مع والدي الغريب، والذي – كما تقول – كان يحبها كثيرًا، بكت منزلها الحلال الذي سلب منها، وعلى مشهد من إخوتها، لقد تنامى حقدهم عليها؛ لقبولها بالزواج من هذا الغريب؛ ليصبح بحجم المدينة، كانت الحمير التي حملتنا تمضي في طريقها، وحوافرها تدك الأرض، وهي تكاد تئن أنينًا حزينًا، ومؤلمًا ممتزجًا بنهيقها البائس، وقد غطت غمامة من الحزن الطريق الذي سلكته الحمير، وغمر الألم وجه، والدتي من ذلك اليوم، فبات، وجهها كالحًا بعدما كان وجهًا مشرقًا، فهي لم تصل بعد لعقدها الثالث، وكانت آثار حوافر الحمير تترك رسومًا واضحةً، و في تصوري، أنها مازالت محفورةً في الطريق إلى اليوم لتوثق مأساة امرأةٍ، كتب لها القدر أن تتزوج إنسانًا من خارج ديرتها مع أنه كان مسلمًا، ورجلاً صالحًا، لم يترك صلاة جماعة في المسجد طوال وجوده في الديرة، وكانت الحمير تتمايل، وتهتز، وهي في طريقها المُتْرِب، وغيرِ المستوي، فأشعر بأن هذه الاهتزازات، إنما هي أصداءٌ لقلب والدتي الذي يهتز بنشيج أنفاسها، وحرارة دموعها، كان مساءً حزينًا، حتى الشمس – تلك اللحظات – كانت أشعتها

تختفي شيئًا، فشيئًا، خلف جدران البيوت الطينية البسيطة، كما اختفت السعادة من حياتنا في تلك اللحظات)... توقف «عطعط» عن الحديث، وراح يبكي بحرقة، رُحت أُمسح على وجهه، وظهره، وأنا أناوله «جرة» الماء الصغيرة طالبًا أن يسمي، ويشرب، ويتعوذ من الشيطان، مضى وقت، وهو على هذه الحالة، شعرت بشيء من الأسى، وأنا أنظر إليه، وتمنيت لو أنه لم يتحدث عن ماضيه الحزين، أحسست أن ضميري راح يعذبني، وفجأة!، عاد يتحدث بعدما مسح عينيه بطرف غترته، (وصلنا البيت المستأجر، وكان في انتظارنا في المجلس رجل عجوز متوسط الطول منحنى الظهر يلبس غترة شال مزخرفة الأطراف بلونين أزرق، وكحلي، وإلى جانبه فتىً يلبس ثوبًا، ينظر إلينا بعينيه الزائغتين بنظرات استغراب، وغير بعيد عنهما وقفت امرأة خمسينية، قمحية اللون، نحيلة طوال، وقوفها، وهي تكُحُّ كحَّةً جافةً، وتبصق بدون خجل تحت «المدة» البساط المفروش في المجلس، كان الرجل العجوز يداعب بيده التي انتشرت عليها بقعًا بنية اللون، عندما اقتربت المرأة النحيلة، وقبلت، والدتي في وجنتيها من فوق غطاء وجهها المبلل بالدموع، رحبت بها بكلماتٍ لم أعرفها جيدًا، لكن الرجل العجوز تكلم مُرَحِّبًا بوالدتي، وقال (ترى البيت من اليوم بيتك، واعتبريني في خدمتك، وترى بيتنا مثل ما رأيته قبل أيام جنب

البيت و«الجليب» بئر الماء واحد) انتهى صاحب الحمير من حمل أثاثنا المتواضع، والذي كان يتكون من بعض القدور، والصحون، وصندوق خشبي تضع فيه، والدتي ملابسها، وأشياء حميمة من بقايا متعلقات، والدي الشخصية... شارته العسكرية النحاسية، وسبحته البرتقالية، وبعض الأكياس البسيطة التي كانت تحتوي على بعض المواد التموينية من سكر، وأرز، وطحين، وبعض قطع السجاد القديمة، والجديدة، والتي كان والدي يتاجر فيها مع بعض «الدواشق»، والوسائد، لف الصمت المجلس فترة، وقامت والدتي بتسليم صاحب العربة «الحَمَّار» أجرته، حينئذ قال الرجل العجوز، وهو يشير إلى الفتى الواقف إلى جواره، هذا ولدي «منصور» تراه في خدمتكم، وإن شاء الله يرافقه إلى «المطوع» من أول الشهر... ترى العلم نور يا «أمّ عثمان»، فردت عليه شاكرة، وأشارت إلى أنها تتمنى أن ترد له جميله، وطلبت منه على استحياء أن يسأل بين معارفه التجار، وباعة السوق عن من يرغب في شراء، أو بيع حلوياتٍ تركيةٍ، أو شاميةٍ، وحتى حلويات من الديرة، حتى تستطيع من خلال بيعها للحلويات، الوفاء بالتزاماتها المادية في سداد إيجار البيت، وما تتطلبه حياتها، وابنها من مستلزمات غذائية مختلفة، قال الرجل العجوز، والذي عرفت اسمه فيما بعد إنه سوف يجتهد في البحث عمن يرغب في شراء الحلويات، وسوف يخبرها بعد

أيام، قال ذلك، وخرج من المجلس، تبعته مع والدتي إلى الباب، عندها خفض رأسه، وقبلني في خدِّي، وهو يردد (ما شاء الله، ما شاء الله، ابنك مزيون) شعرت براحةٍ، ورائحة أنفاسه المطعمة برائحة السواك تملأ أنفي، ويده تداعب شعر رأسي، منذ زمن بعيد لم أجد مثل هذه الحركة من إنسان، مرةً فقط شعرت بأحد الباعة في السوق عندما ذهبت بصحبة والدتي لشراء بعض ما نحتاجه عندما وضع البائع يده على رأسي، وراح يلعب في شعر رأسي، وثاني يوم، اصطحبتني والدتي للمحسن حيث طلبت منه حلاقة شعري بالموسى، وسط دهشتي، وحيرتي... سرعان ما بدأت والدتي، والمرأة النحيلة في حمل أثاثنا البسيط، وتوزيعه في أماكنه، فأمسك الفتى «منصور» بالفانوس، وحملت أنا القدور، والصحون، وأدوات المطبخ «الموقد»، وعندما أذكر الموقد لا أنسى أنه كاد يتسبب لي في عاهة، ما زالت آثارها موجودة في إصبع إبهام قدمي اليمنى، حيث وقعت على قدمي «التاوة» الحديدية عندما كنت أضعها على أحجار الموقد، ولولا رحمة الله كان إصبعي بُتِر في حينها)،قالها، وهو يرفع قدمه اليمنى، وإذا بإصبع إبهام قدمه غير موجود، وشكله تقريبًا فيه نوع من التشوُّه نتيجة لذلك الحادث القديم،(بدأت أمضغ الطعام الذي أحضرته معها تلك المرأة النحيلة بعدما أعادت والدتي تسخينه، كنت شارد الذهن

فيما وصلتْ إليه حالتنا، فبعد الحي الذي كنا نسكن فيه سابقًا، وكنت أعرف فيه بعض الأولاد، وحتى بعض أبناء عمومتي الذين كنت أراهم من بعيد، ولا أختلط بهم، بس كنت أشعر على الأقل بوجودهم، ووجودي معهم في نفس الحي، من الليلة انتهى فصل من حياتي، وحياة، والدتي، وبدأ فصل جديد، تنبهت على صوت والدتي، وهي تقول لي تعشَّى، يا ولدي الله يبارك فيك، نظرت إليها، وشاهدت وجهها البيضاوي المشرق، وشعرها الناعم، وعينيها المليئتين بكل معاني الحزن، الحزن الذي أخفى جمالها، الذي جنن والدي – كما تقول – عندما شاهدها في بيت جدِّي يوم العيد، كانت في الثانية عشرة عندما فتحت له الباب، وليشاهدها وقتها، إنها تذكر تلك اللحظة، لم يكن لوحده كان، معه ثلاثة رجال، لكنه كان أميزهم، بطوله، وبياضه، ووسامته، تقول لي دائما (إنك تشبه كثيرًا)، بسرعة انطلقتْ لتخبر والدها بوجود رجال عند الباب، وتوارت خلف باب الممر لتراقبهم، وهم يدخلون للمجلس، وبعد ثلاث سنوات إذا بوالدها يخبرها أن أحد أصدقائه من رجال العسكر يرغب في الزواج بها، كانت صغيرة، ولا تعلم شيئا عن الزواج، إلا ما تسمعه في مجالس النساء، أو تعليقات البنات في مجلس «المطوعة» عندما تختفي إحدى الفتيات عن الحضور للمطوعة، فتتناقل الفتيات خبر زواجها، كان زواج الفتيات في سنٍ

صغيرةٍ هو السائد في مجتمع الديرة في الماضي، تردد والدها كثيرًا في قبول زوجها، وبالفعل، وتحت ضغوط عدة من إخوانه، وأقاربه، اعتذر له بالفعل، إلا أن إلحاح زوجها، وتكرار حضوره مع العديد من العسكر وافق، وكان الزواج، بل كان النصيب الذي لا مفر منه، والمكتوب مكتوب... نعم هكذا قالت له والدته يوما وهي تبكي في يوم العيد، فالعيد بالنسبة لها ذكرى المشاهدة الأولى، وكعادة الأشياء الأولى دائما تترك أثرًا لا يمكن أن ينسى، أو يتناساها الواحد مهما حاول، فنحن عادة نذكر كل الأشياء التي شاهدناها، أو أكلناها أول مرة، بدت لي الهريسة التي أحضرتها المرأة ليست جيدة، ولا طعم لها، وبتلقائية سألتني والدتي: (عجبتك هريسة «أم منصور». أيُّ الهريسة أفضل، هريستنا، أو هريستهم؟)، أجبتها: (هريستهم كأنها طين)، طالعتني والدتي باستغراب، وخجل، فقلت مستدركًا: (بس أنا أموت في الطين)، وقلت منافقًا: (ما تسوي شيء «أم منصور» إلا كل زين.)).

البيت الجديد

مع أول يوم في بيتنا الجديد، بدأت والدتي رحمها الله حياةً جديدةً، قررتْ أن تعمل بجد أكثر، وأن أساعدها فيما تعمله، ومنذ الصباح الباكر، ذهبنا سويًا إلى سوق المدينة... انتظرنا وقتًا طويلاً بجوار حانوت الصائغ حتى فتح حانوته، وباعت والدتي إليه جنيهًا ذهبيًا، فرح به كثيرًا؛ لأن الذهب في تلك الأيام، وبسبب الحرب، مرتفع جدًا، بل ونادر الوجود.

شاهدته يسلمها مبالغ كثيرة، استأجرت والدتي عدة حمير، وركبتْ والدتي على أحدهم، وأنا كنت أسير بجانب صاحب الحمير، اشترت الوالدة كل ما تحتاجه من مأكولات، وملابس، ومواد غذائية، وصواني خاصة للحلويات، وزنابيل، صغيرة، وكبيرة، وأواني معدنية، وفخارية.

لم تترك شيئًا إلا، وقامت بشرائه، حتى ماكينة للخياطة، لم تجدها جديدةً، لكنها اشترتها من محل خياط، بعدما أقنعته ببيعها؛ نظرًا لسفرها بعيدًا خارج الديرة، ومن الصعب عودتها إليه من جديد، ولم تنسَ أن تشتري أقمشة شفافة لعمل ناموسية لها، وأخرى لي؛ فكان الناموس في ذلك الوقت منتشرًا بصورة كبيرة مسببًا الإزعاج للناس، وحتى الأمراض خاصة في

الفترة المسائية نتيجة لكثرة المياه الملوثة، والمستنقعات، ووفرة مياه الينابيع الطبيعية في الديرة، حتى الرحى لم تنسها والدتي.

تعجب كثيرًا صاحب الحمير – «أبو عيسى» – هكذا كان اسمه على ما أذكر عندما سمعته، وهو يحمل الأشياء الثقيلة، كان يردد (الله يعطيك العافية يا «أبا عيسى»)، أو عندما تطلب منه والدتي شيئًا كان يردد (أبو عيسى تحت أمرك)، كان يقول لي متعجبًا: (ما شاء الله، ما تركتم شيئًا، ناوين تفتحون دكان في «الفريج»)، لم أرد عليه، لكنه عرف فيما بعد السبب في شرائنا لهذه الأشياء، عدنا بعد جولة طويلة إلى البيت، ومعنا حمل كثير، وكبير.

بعدما حمل «أبو عيسى» ما اشتريناه إلى داخل باحة البيت «الحوي» طلبت منه الوالدة أن يشتري لها مواد وقود مناسبة، حملة ثلاث ردود على أن يكون الحطب من أفضل الأنواع... الكرب، أو أعواد الفاكهة التفاح، والرمان، والتوت، أو حطب الغضا، وكانت مواد الوقود من حطبٍ، وأخشاب، وأعواد، تباع بالحزمة، وبأسعار بسيطة جدًا، ولها أسواقها في المدينة، وأشهر مواقعها في سوق «القلعة»، جنوب شرق المدينة، بجوار بوابة المقصب.

وسوق الحطب يستقبل أسبوعيًا عشرات الجمال المحملة بحطب الغضا القادمة من مختلف مناطق الصحراء، إضافةً إلى ما يقوم بإحضاره الفلاحون

من مزارعهم، وعلى وجه الخصوص، حطب أشجار الرمان، والتوت، وكرب النخيل، وحتى جذوع النخيل الجافة. عندما تنتهي والدتي من صلاة الفجر، تبدأ في عمل العجين الخاص بالحلويات، وكانت قد طلبت من «أبي عيسى» أن يشوف لها واحدًا، يبني لها تنورًا داخل البيت، وتم عمل التنور خلال ثلاثة أيام، ويبدو أن عمله كلف كثيرًا؛ لأن والدتي كانت متضايقةً جدًا من المبلغ الكبير الذي دفعته للعمال الذين قاموا ببناء التنور، والذي كان يتكون من قرصٍ كبيرٍ أشبه بالزير مصنوع من الفخار «الطين» الأحمر المحروق.

التنور، ووجوده داخل البيت لم يكن أمرًا سهلاً لكن الرجل العجوز «أبا منصور» صاحب البيت استطاع أن يقنع العمدة، والذي كان بينهما معرفة أن وجود هذا التنور بسبب أن صاحبته امرأة أرملة، ومقطوعة من شجرة، وسوف يساهم في توفير الخبز لأهالي «الفريج»، بدلا من قطعهم مسافات بعيدة لشراء الخبز من الخبَّازين في السوق.

اقتنع العمدة، واستحسن الفكرة بل إنه طلب من الرجل العجوز أن ينقل للوالدة مباركته للتنور، ومشروعها في «الفريج»... أول مرةٍ أشعر بالفرح في بيتنا، والدتي تعمل بزهوٍ، وسعادةٍ... قالت لي، وهو تقطع العجين على شكل دوائر مستخدمة فنجان القهوة:

- تعرف يا «عثيمين»، مالك عليَّ يمين، إن أحسن شيء للمرأة هي أن تجيد شيئا تعمله، ولولا أبوك، الله يذكره بالخير إن كان موجودًا، والله يرحمه إذا كان ميتًا.

قالتها، وأنا أرى غصة تكاد تخنقها، رغم السعادة التي شعرت بها،بدأت والدتي تواصل كلامها، وكأن الحياة دبت في عروقها من جديد:

- إنه علمني كيف أطبخ، وكيف أسوي الحلويات بإمكانياتنا المحدودة، والمتوفرة. أبوك لم يكن عسكريًا فقط، وإنما موهوبًا في أشياء كثيرة، وإن شاء الله، تتعلم منّي ما تعلمته منه، أبوك كان لي زوج، وحبيب، ومعلم... على العموم، أبوك رحل عنّا من يوم كان عمرك سنتين، ياليته يشوفك الآن، طول، وجمال، الله يحفظك - يا ولدي - من العين... على فكرة العين، أنا وصيت «أم منصور» تجيب لي من الشيخ «جامعة» أعلقها على صدرك، خايفة عليك... تذكر - يا ولدي - من كم سنة، عندما راح «البياع» يتحسس شعرك، شعرت بنظرات عيونه تكاد تأكلك أكلاً، ما تصدق - يا ولدي - خفت عليك لحظتها، ولولا الحياء؛ لصرخت في وجهه؛ علشان كذا حلقت شعر رأسك... مرةً سمعت أن وضع اليد على الجسم ينقل الحسد بسرعة، وساعتها فكرت أن أحلق شعرك بالموس؛ علشان ما يبقى أثر لأصابع «البياع» الحسود، والحمد لله، الله سلمك.

ابتسمت وأنا أهز رأسي كأنني موافق على كلامها، رغم أنني لم أفهم ما قالته بشكل واضح... العين... الحسد... الحلاق... واصلت عملي معها، خبزنا الكثير من الخبز الأحمر المعجون بالتمر، والسمسم، والحبة السوداء، مع بعض الحلويات الشهية التي تبدعها الوالدة... بعد نضج ما خبزناه قامت والدتي بتوزيع كميات من الخبز، والحلويات في ثلاث صواني، وطلبت مني إيصالها لكل من بيت «أبي منصور»، وبيت «العمدة»، ودكان «الصايغ» في السوق، مؤكدةً على أن أُخبر «الصايغ» إذا أعجبته الحلويات، الوالدة مستعدة توفر له أسبوعيًا الكمية التي يحتاجها، وسوف أمر عليه بعد ثلاثة أيام أخذ الصينية منه.

كان إنتاج الوالدة من الخبز، والحلويات في الأيام الأولى خصصته كهدايا، وبدون مقابل، ونوعًا من التعريف بإنتاجها، وقدرتها على عمل، وصنع الخبز، والحلويات، ولم تمضِ أيام، إلا وبيتنا صار مقصدًا للعشرات من النساء اللاتي يطلبن خبز، وحلويات الوالدة، وكان الطلب كثيرًا، ومن مختلف المستويات مما اضطر والدتي أن تطلب من «أبي عيسى» أن يبحث لها عن ثلاثة فتيات لا يقل عمرهن عن الخمسة عشرة، ولا يزيد عن العشرين للعمل معها في تجهيز الطحين، وعجنه، وبعدها يأتي دور والدتي بإكمال عجنه، وتخميره بطريقتها الخاصة داخل غرفتها، لم تكن تسمح للفتيات بمشاهدة كيف تُحَضِّر عجائن الحلويات، إلا لي شخصيًا، كانت

تقول لي هامسةً:

- هذا رزق من الله، ولا يجب أن يعرف أحدٌ بعض أسرار الرزق، لو عرفت البنات الطريقة الخاصة التي تتبعها أمك في أعداد الحلويات؛ ممكن يقمن بتقليدها؛ ويطير عملك من يدك، أنصحك - يا ولدي - حافظ على أسرار طريقة أمك تكسب ذهبًا.

لأول مرةٍ أشعر بأن والدتي فيها شيءٌ من الأنانية، في عدم رغبتها في تعليم الآخرين، ومع الأيام اكتشفت أنها كانت على حق، خاصة في مجال الأعمال التي - كما تقول - تُدِرُّ ذهبًا؛ لخصوصيتها، وتميزها، وفي هذه الفترة بدأ الناس يتحدثون عن السلطان «عبد العزيز بن سعود»، وكنت أستمع إلى حديث الناس عن بطولاته، وانتصاراته، وأنه يخطط للقدوم للمنطقة، وكالعادة، الناس تتحدث عن معاناتهم الشديدة من التَسَيُّب الأمني، وضعف إدارة الأتراك، وعدم ولاء العسكر، والأهم، سيطرة بعض القبائل الكبيرة على أنحاء المنطقة.

وكان لاهتمام العسكر بأمورهم الشخصية دور كبير في إتاحة الفرصة للعديد من اللصوص، وقطاع الطرق، و الحرامية من تعكير الأمن، والاستقرار في الديرة، فكان الكثير من أبناء الديرة يتطلعون إلى الاستقرار، والأمن، وكان يُعتبر قدوم السلطان «عبد العزيز» لهم، والسيطرة على المنطقة، وضمها إلى لوائه أملاً يدعون الله مخلصين أن يتحقق.

وتمضي الأيام، وتتحقق الآمال، والأحلام، فتنضم المنطقة، وتتوحد المملكة، ويبدأ الأمن ينتشر في مختلف مدن، وقرى، وهجر المنطقة، إلا فيما نَدَر؛ وبالتالي خفَّت حدة أخبار حوادث اللصوصية، والهجوم على المزارع، واقتحام البساتين، وسرقة، أو نهب محاصيلها الزراعية، خاصة التمور، خصوصًا بعدما تم تعيين الأمير «عبد الله بن جلوي»، والذي كان يمتاز بهيبة كبيرة، ولا يتردد عن تنفيذ العقاب الشديد لكل من تُسَوِّل له نفسه الإخلال بالأمن، لقد هابه الجميع، وكان سماع اسمه يثير الخوف في نفوس البعض.

ومع الأيام، بدأت تنتشر العربات الخشبية، والتي تجرها الحمير مع استيراد عجلاتها من «البحرين»، أو «البصرة»، وهي عجلات مستعملة، ازداد العمل في بيتنا، وباتت الوالدة مشغولة جدًا بمتابعة عملية إنتاج الخبز، والحلويات، وصرت مسئولاً عن توصيل بعض الطلبات إلى العديد من البيوت في مختلف أحياء المدينة.

ومع الأيام اتفقنا مع سائق العربة «أبي عيسى» على العمل معنا في الفترة المسائية؛ لتوصيل الطلبات المختلفة، أحيانا كنت أرافقه في جولته التوصيلية، وأحيانا كنت أفضل استقبال المترددين على بيتنا الذي بات يسمى «بيت الخبَّازة أمّ عثمان»، وكان يعاوننى «منصور».

مرة ذهبت مع «أبي عيسى» لتوصيل طلبات، وخلال سيرنا بالعربة الخشبية، و التي اشتراها مؤخرًا، التقينا بـ«عايش»، وهو يقود عربته، أوقفا عربتيهما بجوار بعض، تصافحا بودٍّ، وقال «عايش» بصوت خفيض:

– أشوف معك ولد يجنن، لاتصير أناني، أموت في شعره الناعم.

لم يتردد «أبو عيسى»، وبصق في وجهه، وهو يشتمه، ويلعنه:

– ماتعرف من هو ولده هذا، يا ابن الكلب؟

ابتعد «عايش» مذهولاً، وهو يمسح البصقة من على وجهه بطرف إزاره المربوط في وسط ثوبه، وقال متذمرًا، وبعصبية بدت واضحة في عينيه التي كانت تتطاير شررًا:

– علينا يا «أبا عيسى»؟ ترى طابخينها، وواكلينها سواء، نسيت حبة الخال اللي في «المبروكة» ترى هي اللي اشترت لك ها«القاري»؟ ولا أنت تقدر تشتريه «يا الهيس الأربد»؟

بسرعة نزل «أبو عيسى» ماسكًا عصاه الخيزران، وراح يضربه بشدة، وهو يقول:

– أقدر أشتريك، وأشتري أهلك.

راح يصرخ، ويستغيث، وهو يردد التوبة:

– يا «أبا عيسى»، التوبة.

توقف «أبو عيسى» عن ضربه، تمالك «عايش» نفسه، وانطلق بعربته التي تحركت نتيجة لضربة من عصا «أبي عيسى»، جاءت على ظهر حمارة «عايش».

كنت أتابع الأحداث التي جرت أمامي مذهولاً، (ماذا كان يقصد «عايش»، وماذا كان يعني «لا تصير أناني»، ولماذا بصق «أبو عيسى» في وجهه)، صعد «أبو عيسى» على مقعده بجواري في العربة، وأنفاسه تتصاعد بحدة، والزبد الأبيض في زوايا فمه، والعرق يتصبب منه، وراح يقول:

– ابن الكلب، يتصور ابن الأجاويد واحدًا منهم؟ ما عرف أنه يسواه، ويسوى كل طوايفه؟

قلت له:

– خير يا «أبا عيسى»، إيش اللي صار، عسى ما غلط عليك.

فأجاب، وهو يمسح عرقه بكم ثوبه:

– هو بس غلط، إلاَّ غلط وغلط، والله يكرمك تغوَّط من فمه.

وراح يقول متضايقًا، وحزينًا

– طالع يا ولدي، الحياة فيها الشيء الزين، وفيها الشين، واللي قاله هذا الكلب شيء شين.

وعلى استحياء راح يشرح لي ما كان يقصده الكلب الأجرب «عايش»، أول مرة أعرف أن هناك أناسًا شاذين، وفاسدين في هذه الحياة، وهم منتشرون في كل مكان، والعجيب أنك تراهم في أشكالهم الإنسانية بكامل خلقتهم.. يعجبك حديثهم، وحسن هندامهم، بل إنك تكاد تراهم في مختلف الأوساط الغنية، ومحدودة الغنى، والفقيرة، إنهم أشبه بالمرض، بل إنهم أخطر الأمراض جميعا، وفي مختلف المجتمعات.

بعدما ضمني البيت بوالدتي، رحت أخبرها بما حصل، ضمتني والدتي، وراحت تحدثني عن أشياء كثيرة كنت أجهلها فيما مضى من زمن، خاصةً، وعمري صار خمسة عشرة، وبدأت أعرف لماذا كنت أتلذذ، وأنا أشاهد الفتيات اللاتي يعملن في بيتنا، وبعضهن كنا يطالعنني بعمق، بل إن إحداهن كانت تعضُّ على شفتيها، وأنا أتسلم منها صينية الحلوى، وأخرى كانت تحاول الالتصاق بجسمي، وأنا أساعدها في نقل أكياس الطحين من داخل الغرفة، كانت نظراتهن فيها أشياء، وأشياء، عرفتها بعد ذلك.

كنت قد التحقت بالكُتَّاب «المطوع»، وتعلمت فيه مبادئ القراءة، والكتابة، والقرآن الكريم، وصار لي أصدقاء، وأصحاب كنا نلعب معا ألعابنا الشعبية التراثية، كانت ألعابًا بسيطة، ومتنوعة، وكثيرة، لكن سوف أصف لك لعبة واحدة، إن لم تَخُنِّي الذاكرة عن تفاصيلها، كانت هذه اللعبة «اللقصة»، وهي تشتهر في مختلف المدن، والقرى، ويلعبها

الأولاد، والبنات، ومطلوب للعبها خمس حصوات بحجم صغير تسمى «المصاقيل» ماعدا حصاة واحدة تسمى الخال، وفي العادة يلعبها اثنان على الأقل لكن لا يمنع من أن يلعبها أكثر من واحد، وفي العادة كلما ازداد عدد اللاعبين، ازداد الحماس، والتحدي وسط نظر الحضور من، الأهل، أو الأصحاب، وتبدأ اللعبة بقول أحدهم: (حلي بها)، بعدما يرمي الأحجار الصغيرة على الأرض، ويلتقط الخال، ويقذفه في الهواء، وبسرعة يقوم بسحب إحدى الأحجار في تقويسة يده التي وضعها على الأرض بصورة قوسى، والحرفية، والحماس، فيها أن تدخل الأحجار بسرعة، ويلتقط في نفس الوقت الخال الذي سبق له أن قذف به الهواء.

كنت ألعب هذه اللعبة، وعشرات غيرها في ساحة «الحوي»، أو الدهليز، أو حتى في السباط بين البيوت، ورغم ما أبديته من جدٍّ، واجتهادٍ، ورغبة في الدرس، والتحصيل، إلا أن وقت العمل في البيت، ومتابعة الخبز، والحلويات مع تضاعف الطلب عليها، خاصةً الحلويات الشعبية مثل «الكليجا»، و«الملتوت»، وقف عثرة أمام إكمال تعليمي، إضافةً إلى انشغالي بجوانب خاصة.

ولكن القدر الذي كتب لي ولوالدتي المعاناة منذ وقت مبكر، حرمني بعد هذا من والدتي، فأصبحتْ طريحة الفراش نتيجة لتعرضها لمرض في صدرها، هناك من قال أنه نتيجةً لاستنشاقها للأدخنة باستمرار، ولسنوات

خلال متابعتها للعمل بجانب التنور، والموقد، حيث تخبز القرصان، وخبز المسح، ومعجون الحلويات «القطايف».

وبعد شهورٍ، سمعنا بوجود طبيب أمريكي جاء ليعالج بعض المرضى في المنطقة، فحملت والدتي في عربة «القاري»، واتجهت بها إلى مدينة الهفوف حيث يقع المستشفى، والذي كان عبارة عن قصرٍ كبيرٍ يسمى «قصر صالح إسلام»، كانت الجمال، وعربات القواري، والخيول، والبغال، والحمير، والناس مرضى وأصحاء، يقفون أمام ساحة القصر الكبير، لقد فتنني مشهد هذا القصر الجميل، والذي يتكون من ثلاثة أدوار، وفي أحد جهاته الأمامية رواق يشكل شرفة كبيرة، وجميلة، كانت خلف القصر غابة من النخيل، والأشجار، مما أضاف بعدًا جماليًا للمستشفى.

شعرت براحة، ودهشة، وأنا أشاهد المبنى بضخامته، وروعته، وأنا أساعد والدتي المريضة الحبيبة للدخول إلى ممرات المستشفى القصر، فوجدت مئات المرضى المساكين، ونسبة كبيرة منهم نساء، وفتيات، وأطفال، كانت المشاهد مؤلمة، لحد تنسى خلالها آلامك، وحزنك، وحتى مرضك، أو مرض من قمت بإحضاره لهذا المستشفى الوحيد، تحاملت والدتي، والتي كانت قد بدأت تبصق دمًا، منظر البصاق، والدم ذكراني بمنظر امرأة الشيخ العجوز قبل سنوات، عندما استقبلتنا في المجلس مع زوجها، وابنها «منصور»، والتي توفيت قبل أكثر من عام متأثرة بمرضها كما قيل.

شعرت بالخوف، والرهبة، وأنا أرى حالة والدتي، بل هي الأخرى يبدو أنها شعرت بما شعرت به، فراحت تضغط على ساعدي بقوتها، كأنها تتمسك بي، ونظراتها من خلف حجابها الأسود الشفاف يشف عن نظراتها الزائغة التعبة، من الصعب التعبير عن تلك اللحظات مابين الألم، والرجاء، والأمل، ورائحة الموت التي تعبق في ممرات المستشفى، ورائحة المواد الطبية المطهرة، رائحة غريبة عجيبة تثير فيك مشاعر شتَّى، خليطًا من الأمل، والرجاء في الله، ودعوات أهالي المرضى، بل وحتى المرضى أنفسهم القادرين على الكلام.

بعد انتظار مملٍ، جاء دورنا، فحص الطبيب الأمريكي، وكان اسمه «هاريسون» والدتي، وتحدث هامسًا لي بلغة عربية ضعيفة:

— خسارة ولد ماما تأخر كثير، هذا مرض يحتاج إلى استمرار علاج، المشكلة ما فيه هنا سرير، أنت شوف كثير مرضى.

كررها:

— ما فيه مكان.

وراح يطبطب على ظهري بيده الناصعة البياض:

— الله كريم، ولد ممكن إن شاء الله بعد استمرار علاج فيه تحسُّن صحة ماما.

شكرته، وناول الوصفة التي كتبها لإحدى الممرضات التي سرعان ما قامت بإخراج حقنة زجاجية من الغلاية المعدنية، أحسنت وضع الحقنة في زجاجة الدواء،«أستربتومايسين» سحبت المادة الدوائية داخل الحقنة، ضربتها بطرف أحد أصابعها النحيلة، تساوى الدواء داخل الحقنة، نفضَّتها، ثم تطلعت إليها، وأشارت لوالدتي بالوقوف خلف الدريئة المصنوعة من الخشب المصبوغ بلون أبيض، لم تتأوه والدتي، ولم تقل شيئًا، أنا الذي أحسست بألمها، ومقدار معاناتها، وكدت أبكي أمام الممرضة.

تحاملت على نفسي، ساعدت والدتي على السير إلى الغرفة المجاورة حيث ما يسمى بالصيدلية، صُرفت لنا كمية كبيرة من الحبوب، والأقراص، كنا نسير في الممر بين أجساد المرضى، والمراجعين، وعلى أصوات تأوهاتهم، وصراخ بعضهم، هذا الرجل المحمول يصرخ بحدة، فلقد سقط من أعلى النخلة، فكُسِر ظهره، وآخر مصاب بأكثر من طلق ناري من لصوص البدو الذين قاومهم خلال سرقتهم لتمر «الصرام» من البستان الذي يعمل فيه أجيرًا، بالقرب من قرية «المطيرفي»، إصابات عديدة، وحالات مرضى خطيرة لكنه اهتز أكثر، وتألم أكثر، عندما شاهد طفلاً صغيرًا مصابًا بحروق شديدة في جسمه نتيجة لسقوطه في قدر ماء كان يغلي.

اهتزت يد والدته في يده، وهو يهتز ألمًا لمشاهدته هذا الطفل المسلوخ، واهتز المبنى، وشعر أن النخيل خلف المبنى بدأ يتمايل حزنًا على المشاهد

المعيشة في الداخل، وحتى الخارج، غمغم في نفسه داعيًا من الله أن يشفى الجميع، وأن يشملهم برحمته، وأن يبعد عن والدته المرض الكريه، مازال يذكر كلمات الممرضة، وهي تطلب منه عدم الاقتراب أكثر من والدته، وأن يخصِّص لها أدوات أكلٍ خاصةٍ بها، وأن يُحسن تغذيتها، وأن يبعدها عن الأدخنة، والغبار، فصدرها الآن تعبٌ كثيرًا، في البيت قالت له والدته:

- أنا واثقة أن اللي معي، مرض جاني من عمتك «أم منصور»، يبدو أنها نقلت لي المرض - الله يرحمها -، كانت تحبني بس ما كنت أتصور إنها تهديني مرضها.

قالت ذلك، وهي تخفي ضحكةً ميتةً على شفتيها.

- لا لا لا تقولين مثل ها الكلام.

قلت لها مقاطعًا، وأنا أبكي من الداخل،

- أنا واثقة يا ولدي، ومؤمنة بالقدر خيره، وشره، فكيف أستطيع أن أخفي على ولدي، وشعرة جوفي، أنت ولدي، ويجب تعرف كل شيءٍ، وكيف أنعم بالصحة، والعافية، وأنت تتألم معي، من اليوم - يا ولدي - انتبه لنفسك، ترى مرضي خطير، ومصيري الموت، من يوم شفت الدم طالع من صدري، وأنا حاسة بقرب منيَّتي.

قمت، وقبّلت رأسها، حاولت إبعادي بيدها التي باتت ضعيفة، برزت فيها العروق،(أين تلك اليد الملفوفة الطرية الناعمة التي تجسد الجمال، والصبا، إنها الآن يد جافة معروقة)، قلت:

- لا تخافين عليَّ، مالك ولي إلا كل الخير، عندك الآن في البيت رجل، يعتمد عليه، (هل أخبرها بأنني بدأت أحلم، واكتشفت أن سائلاً لزجًا شفافًا لوث قضيبي، لقد تأثرتُ لحظة الاكتشاف، كدت أصرخ، لقد غسلت ملابسي سرًا، شعرت بالرهبة أن أخبرك بما حصل لي، وعندما تجرأت، وسألت أحد أصحابي في «الفريج»، أخبرني بأنني قد بلغت، وأصبحت رجلاً، وهذه المادة تدعى بالمذي، وهناك مادة أخرى، تخرج من الشباب، والرجال عند الجماع، تسمى بالمني، نعم إنني رجل، يُعتمد عليه لا تحملين همًا يا والدتي، أفديك بعمري، وشبابي، هل أخبرك عن «أمون» «أمينة»، وماذا تفعل معي، وكيف تغتصبني؟

صاحت بصوت ضعيف تخللته أكثر من كحة:

- «أمون»... «أمون».

وكانت «أمينة» إحدى الفتيات التي تعمل لديها، وبعد أن أتعبها المرض، أوكلت إليها القيام ببعض الأعمال المتعلقة بالتنور مع إتاحة الفرصة لها العيش في بيتنا تخدمنا، وتطبخ لنا، تراجع الكثير من الزبائن بعد انتشار خبر مرض والدتي، ومع هذا هناك من يأتي لطلب الخبز، والحلويات، في الفترة المسائية كانت هناك أكثر من فتاة، وامرأة، أما في الفترة الصباحية.

فكانت الموجودة فقط «أمون»، كانت امرأة ناضجة فيها شيء من الجمال، لم تصل إلى عقدها الثاني بعد، لقد توفى زوجها الشاب مختنقًا بانفجار «بيضة» بالوعة أحد البيوت عندما نزل ليقوم بتنظيفها، لقد توفى هو، وزميل له في حادث مأساوي تحدثت عنه المدينة كلها لعدة شهور، واقتربت «أمون»، بدت لي اليوم أكثر جمالاً، كانت تمشط شعرها بمشط خشبي، وتسير، وفي فمها علكة عمانية، ومع كل خطوة كانت تهتز أردافها، تجعل لحركة جسمها حركة ملفتة، تدفع الناظر إليها إلى الاستمرار في متابعتها بصورة شهية.

– سمي يا عمتي.. اأمرى!

قالتها وهي تدعو الله لها بالشفاء، والعافية، أجابتها والدتى بصوت ضعيف:

– من اليوم أوصيك عليه، حطِّيه في بالك، هو المسئول عن كل شيء في هالبيت، وكل ما يتعلق بالتنور، أنا خلاص مريضة، والطبيب طلب مني لزوم الراحة، وتركت لك مسئولية متابعة عمل البنات، والله الله في الشغل الزين!.

وأدركت «أمون» أن سيدتها مريضة جدًا فهذه أول مرة تقول لها مثل هذا الكلام، بل وتشير صراحة إلى مرضها، وضرورة الاهتمام بابنها الذي بات رجلاً، وشعرت في داخلها بسعادة كونها سوف تشرف على عمل

البنات، والبيت، والتنور، صحيح كانت تقوم بهذه الأعمال، والمسئوليات في السابق، بدون أوامر، أو توجيه من سيدتها «فوزية»، إلا أنها الآن تلقت أوامر مباشرةً من سيدتها الحبيبة، أحست بجسامة المسئولية، كادت تقول لسيدتها إنها ترفض هذه المسئولية، فهي تفضل أن تعمل بعيدًا عن تحمل المسئوليات المباشرة، ترددت، فكرت، احتارت، تعتذر، أم تقبل، ولو اعتذرت فربما تقبل البنت «مريم»، أو «فاطمة»، أو «عفيفة»، كلهم أكيد يتمنون لو قاموا بهذه المسئوليات، بدلاً من العمل مباشرة بدون اعتبارات، أو تقدير، تحمل مسئولية العمل هنا دليل ثقة من سيدة البيت، وصاحبة أشهر تنور في الديرة، راحت تتساءل، وتفكر، وفجأة! اقتربت من سيدتها، وقبّلت رأسها قائلة:

— أنا في خدمتك يا عمتي، و«عثمان» داخل عيوني.

لو تستطيع أن تقول الحقيقة أنه داخل قلبها، أنه ورغم صغر سنه تشتهيه، تتمناه في كل لحظة، وأنها دائما تحلم به، وهي تحتضنه، وهي تلعب بشعره الحريري، وتتركه يلعب بها كيفما يريد، آه منذ ثلاث سنوات، بل، ومنذ اليوم الأول لعملها في هذا البيت، ومنذ اللحظة الأولى التي شاهدته فيها، وهو يتمدد داخل عروقها، وأنه... وأنه... هل تقول لها كيف توصيني عليه، وهو حبيبها، وعشيقها، وأنها اغتصبته أكثر من مرة، نعم. لم تقاوم شهوتها عندما شاهدته نائما في غرفة السطح، كان حظها جيدًا، ذلك اليوم لم

تكوني موجودة في البيت، والبنات مشغولات بجوار التنور، وكنت أنشر الغسيل في السطح عندما رأيته؟ هل أعترف لك بأنني اغتصبته، بل ومنذ ذلك اليوم، وهو حبيبي، وعلمته فنون الحب، وكيف يكون رجلاً مع المرأة؟ في البداية كاد يبكي من الخوف، والمفاجأة، لقد تركته يداعبني يتحسس مواقع أنوثتي، قاوم، وقال أنه سوف يخبرك، وبعدها سرعان ما استسلم لقبلاتي، ورغباتي، شعرت بحرارته، وفتوته مع أنه لم يبلغ بعد، هل أقول لك شيئا يا سيدتي الحبيبة؟ إن جمال ابنك يحدث سحرًا مبينًا كما فعل جمال نبي الله «يوسف» في زوجة العزيز، سامحيني يا عمتي، إنني امرأة، وأنت تعرفين المرأة عندما تحب، فكيف والمحبوب ساحرٌ للقلوب؟

لقد حاولت أن أزيل تأثيره من قلبي لكنني لم أستطع، كيف يستطيع الإنسان أن يزيل أثر الكي من الجلد؟ هكذا هو تأثير ابنك في قلبي إنه يشبه الكي على الجلد، أنا امرأة، وأرملة، وشابَّة، عاشرتُ زوجًا، وعرفتُ كيف تكون المتعة ومدى تأثيرها؟ لقد حاولت، ابتعدت، شغلت نفسي عنه بالعمل، والإخلاص لك، لكنني كنت أشاهد نظرات الفتيات، وكيف تمزمز «مريم» شفتيها عندما تشاهده، وكيف تحاول «فطوم» الاحتكاك بجسده عندما يقترب منها؟ جميعنا كنا نحبه، ونشتهيه، لكنهن فتيات، وعذارى، وأنا أرملة سبق لها تجربة الرجل، وأعرف جيدًا ماذا يعني الرجل في مخدع الزوجية؟

تصدقين يا عمتي، أنني كنت أغير منهم، من نظراتهم إليه، من أحاديثهن، وهمساتهن عنه، وعن وسامته، بل إن «مريم» قالت ذات مساءٍ، وهي تندب حظها العاثر (لو الحظّ زين؛ كنت زوجة لهذا الزين)، كان علي أن أكون أكثر حكمة، وبعد نظر، فلا تكتشفين علاقتي به، لقد اتفقت معه على اللقاء في بيت والدتي الكفيفة التي أكل الجدري وجهها، ولحس عينيها، كنت أذهب إليها كل مساءٍ، بحجة خدمتها، والنوم معها، وأنا في الحقيقة كنت أتيح له اللقاء بي هناك، لقد أخبرتك أن شقيقي الكبير انتقل للعمل في «الدمَّام»، ولا أحد في منزلنا، ومن الضروري أن أخدم والدتي، وهي بهذه الصورة الصعبة، كفيفة، ووحيدة، وأذكر أنك باركتي خطوتي، وحسن تفكيري، ومشاعري كبنت وفية، ومخلصة، وتخاف الله، فسمحتي لي بالنوم عند والدتي

كان ابنك الحبيب يتردد علي بين ليلة، وأخرى، وحسب الظروف، بل إن والدتي – رحمها الله – كانت تعلم، وتشعر بوجوده، وحضوره، وكنت أبرِّر حضوره بإحضاره بعض الأكل لها، فكانت دائمًا تدعو لك، ولا تعلم أنه يَحضر لي، بل إنه لا يتردد عن عمل أي شيءٍ أطلبه منه، لقد ربيته، وأحسنت تربيته جسديا، وجنسيا، أصبح مدمنًا لجسدي الممتلئ، الشبق، المفعم بالرغبة، والشهوة، وأصبح ملكي، نعم. أصبح ملكي، بإمكانك أن تسأليه.

والآن يا عمتي ها أنت تطلبين مني أن أعتني به، هل هناك عناية، ورعاية أكثر مما يحصل عليها كل يوم بل كل لحظه؟ وهل هناك عطاء أكبر، وأعظم من أن تعطي المرأة جسدها لرجل؟ مهما كان نوعه، فكيف، وهذا الرجل هو حبيبها، وعشيقها، بل إنه بات جزءًا منها، لقد أدمنته، وأدمنها، ودخلت فيه، ودخل فيها، حتى وعندما كنت أنام في هذا البيت بعد وفاة والدتي، كنت أضاجعه عندما تنامين، يا الله ما أروع النوم مع فتى بهذا الجمال، والقوة، وصباح كل يوم أشعر بحيوية، ونشاط غير معقول، كأنه نقل إلى جسدي قوته، وحيويته، وفتوته، واليوم جاء ما تمنيته طويلاً، أو كما يقول المثل «جاك يا مهنا ما تتمنى»، اليوم سوف أكون الآمرة الناهية، وأنت، نامي مطمئنة قريرة العين، نامي ملء جفونك، فابنك بين أيدي «أمينة» الأمينة.

ارتسمت على شفتي «عثمان» ابتسامةٌ دلَّت على أنه عرف المغزى، وما يدور في خاطر «أمون»، ولكنه عمد إلى تغيير مجرى الحديث، فسأل «أمون»، ونظره في اتجاه، والدته:

– بس يا «أمون» تقدرين تتحملين مسئولية مهام البيت، والتنور، والبنات؟

فأجابت بعدما جلست إلى جوار والدته .وراحت تشير لي بأصبعها السبابة:

– أنت ألا يمكن أن تساعدني؟

– أنا؟ طبعا. اللي أقدر عليه بقوم به

– خلاص إذن ما فيه مشكلة، والحمد لله البنات فيهم خير.

قالت والدته بعد أن تمددت على «الدوشق» الأبيض، والمطرز بخيوط ملونة مرسوم عليها عصافير، وزهور.

– «عثمان» ما يقصر يا «أمون»، بس يا ليت يحصل له وحدة مثلك لما يكبر، ويجي وقت زواجه، شاطره، وهميمة، وتعرف أمور البيت.

توقفت بعدما راحت في موجة من السعال، مَسَحَتْ فمها بأطراف حجابها، وأضافت:

– «أمون»، أنا أشعر أنك اسم على مسمَّى، وتحققين ما أتمنى.

مدت «أمون» يدها، أمسكت بيد سيدتها النحيلة، وقبلتها، وقالت:

– إن شاء الله ما تشوفين إلا ما يسرك، ومثل ما قلت قبل، «عثمان» في عيوني، وأستحي يا عمتي أقول لك، هو عيوني الاثنتين.

ماذا قالت؟! إنها تكاد تعترف، وتكشف أوراقها أمام سيدتها، قامت بسرعة.

– سامحيني يا عمتي، أروح أطبخ الغداء.

راح يحدق فيها، وهي تقوم، جسمها الملفوف القوام، يديها، مؤخرتها، صدرها الرماني، شعرها الأسود الفاحم، المتناثر على ظهرها، إنه يحبه هكذا بدون أن تعمله ضفاير، يحب أن يمرر أصابعه بين خصلاته، ويرفع بعضًا منه لأنفه؛ ليشم رائحته، رائحتها، المشبعة برائحة المشموم، ودهن العود، والزعفران، صار يشتهيها هكذا، وفي انتظار الانفراد بها راح يعض إصبعه كما كانت تعض شفتيه، وتمتص رحيقه، هذه المرأة الساحرة.

هل كل النساء مثلها، لقد علمته أشياء لم يكن يعرفها، هل لأنها أرملة، وكانت متزوجة، لماذا بعد عملية الجماع تبقى محتفظة بتوتر جنسي، يتجسد دائمًا في تطويقها لعنقه، ومحاولة الإمساك به، وتقول له كلمات غريبة فيها رجاء، وتوَسُّل، وضعف، غير الشعور اللذيذ المرسوم في عينيها، حتى عندما كان مازال فتى صغيرًا، لم يبلغ بعد، وكانت تغتصبه، كان يشعر بمحاولتها الدائمة في الاحتفاظ به من خلال استمرارها في احتضانه، وتقبيله في كل مكان من جسمه، لقد سحرته هذه المرأة، نعم. لقد بات أسيرًا لها ولا يستطيع الاستغناء عنها.

«فطوم»، و«مريم»، و«عفيفه»، الفتيات اللاتي يعملن في بيتهم، كل واحدة فيها ميزة تجذبه إليها، «فطوم» بغنجها، وجمالها الفارسي كما تقول أمه، و«مريم» بنعومتها، ورشاقتها كغصن البان، ودائمًا تستقبله بشفتين مرتعشتين، ووجنتين يكاد الدم ينفر منهما، أما «عفيفة» فكثيرًا ما حاولت الاحتكاك به بل إنها همست له في خوف:

– أموت فيك.

لكنها وحدها «أمون» استطاعت السيطرة عليه، وخطفه منهم، بل وامتلاكه، وفهم أن حبَّه، أو عشقه لـ«أمون» شكل ثاني، يختلف عن حب الأولاد الذين يعرفهم في الحارة، أو في «المطوع»، والذين كان بعضهم يفخر بأنه ضاجع فتاة، أو اغتصبته امرأة بالصدفة، وهناك من لديه علاقات كثيرة مع سيدات متزوجات، ونساء مطلقات، حتى «منصور» ابن جارهم قال له إن إحدى السيدات، والتي كانت تزور، والدته، وهي طريحة الفراش، سألته عن حوش الغنم، تريد حلب الماعز، لإحضار حليب لوالدته، وعندما ذهب معها إلى الحوش، راحت تداعبه، وتقبله بشهوة عظيمة، وبعدها اغتصبته على عباءتها، ومن يومها وهذه المرأة صاحبته بل إنها استمرت في الحضور لبيتهم بعد وفاة والدته بحجة خدمة والده العجوز لتمارس معه الجنس.

عشرات الحكايات، والقصص الغريبة التي سمعها من أصحابه، والتي قد لا تُصَدَق إلا إنها موجودة في كل مجتمع منذ بدء الخليقة، هذه هي الحياة، وما أكثر ما فيها من عجائب، وغرائب النساء، وحتى الرجال، أما هذه المرأة فهي مختلفة، «أمون» مختلفة، وأتحدى أن تكون هناك امرأة مثلها في سيطرتها عليه لحظة اللقاء، والفعل، لحظة إطلاق العنان للغريزة الحيوانية معها يشعر باللذة كما يجب أن تكون، الرعشة، الرغبة في الممارسة من جديد بعد الإفراغ، فهي دائما قابلة للمداعبات، والملاطفات بل إنها

تحثه على ذلك، تدفعه إلى التحليق معها عاليًا في سماء النشوة، والمتعة، حتى والدتي شفاها الله ها هي تتمنى لي زوجة مثلها لما أكبر، إنها لا تعلم أنني بتُّ كبيرًا معها، وأنني أعاشرها معاشرة الأزواج، منذ كنت فتى قبل البلوغ، واليوم أمارس معها الحياة الزوجية بدون رباطٍ شرعيٍ، أنني خائف من الله، ومن عقابه الشديد، يجب عليَّ الزواج منها.

أعرف أن هناك فتيان أصغر منِّي متزوجون، «صالح» الذي يدرس معي أخبرني قبل شهور أن أصحبه لحفل زواج ابن جارهم الفتى، والذي تزوج فتاة صغيرة، فكرت الذهاب معه لكن العمل في البيت لم يُتِح لي الفرصة لحضور حفل زواج الفتى الصغير، ما يمنع لو تزوجت «أمون»، هل تسمح والدتي بزواجي منها.

لا أعتقد، هي تتمنى لي زوجة مثلها، لا أن أتزوجها شخصيًا، هل هذا معقول؟ والظروف تسمح لنا باستمرار علاقتنا بصورةٍ سريةٍ لا يعلمها إلا الله، الله... أشعر بخوف شديد، بدأ ضميره يعاتبه بأن مصيره جهنم، وبئس القرار، لقد استمع للشيخ «المطوع» في الكُتَّاب يتحدث شارحًا مصير كل إنسانٍ يرتكب الحرام، خاصةً الزنا، جسده يرتجف خوفًا من المصير.

أستغفر الله كثيرًا، ومرَّت الأيام، والشهور، ووالدته مازالت طريحة الفراش، بل ازدادت حالتها سوءًا مع أنها تتناول الأقراص، وتراجع

المستشفى بين فترة، وأخرى لأخذ حقن «الاستربتومايسين»، إلا أن الداء تمكن منها كثيرًا؛ فماتت، وعندما ذهب بعد تردد كبيرٍ إلى أشقَّاءِ والدته، لم يكترث منهم أحد، ولم يحضر أحدهم مراسم دفنها، قمة الحقد، والكراهية، وانعدام الإحساس بدم الأسرة الواحدة، وكان العزاء محدودًا، اقتصر على الجيران، وبعض أهالي الفتيات، اللاتي يعملن في بيتهم.

(المخبز والتنور)

ولم تمضِ شهورٌ، إلا وتزوجتُ «أمون» التي لم تسعْها الدنيا بزواجي بها، كنت في السابعة عشرة عندما تزوجتها، وكانت تكبرني بعشر سنوات، كانت أكثر نضجًا ودراية بأمور الحياة مني، وفي يوم من الأيام طلبت مني أن أنتقل معها إلى السكن في بيتها الذي ورثته عن والدتها، وأن أبتعد عن عمل الخبز، والحلويات، خاصة، وأنها بصراحة تخاف على من الفتيات، وتخاف على نفسها من أن تصاب من دخان الموقد، والتنور بالمرض الذي تسبب في موت والدتي.

لقد سألتْ عنه، وعرفتْ أنه مرض «السل» الخبيث، والذي تسبب في وفاة الآلاف من الناس في كل مكان، بعد إلحاح اقتنعت بفكرتها بعدما شرحت لي فكرة عمل جديدة أفضل من عمل الخبز، وهو السقاية توزيع الماء على البيوت، ومحاسبتهم شهريًا مع تزايد حاجة الناس إلى شرب ماءٍ نظيفٍ بدلاً من ماء «الجليب» البئر، والذي تسبب في إصابة من يشربونه بأمراضٍ باطنيةٍ خطيرةٍ.

نشر الدود في بطونهم، وسوف يكون العمل سهلاً، ولا يتطلب جهدًا كبيرًا، ومصاريف كثيرة لتوفير الطحين، ومواد الوقود من حطب، وغضا،

المطلوب فقط، شراء «قاري» عربة، وحمارة، وكم قربة ماءٍ، والحمد لله الماء النظيف في «عين الحارة»، أو «عين مرجان»، أو «عين الزواوي»، وهذا العمل بيعرَّفَك أكثر على الناس، ويجعلك تدخل في كل بيت، وتأكد أننا بنكسب ذهب.

كان معها حق عندما طلبت تغيير عملي، والانتقال للسكن في بيتها، فبعد شهور كان الحاج «أبو منصور»، الرجل الطيب، قد توفَّاه الله؛ ليلحق زوجته؛ وليطلب الورثة بيع البيت الذي نستأجره منهم، وماهي إلا أيام، وانتقلت للعيش مع زوجتي في بيتها بعدما تركت العمل الذي تعلمته من والدتي، وحملت معي أهم الأشياء التي كانت والدتي تحرص عليها... صندوقها الخشبي، وعلبة معدنية فيها بقايا مجوهراتها البسيطة، وسجادتين تركيتين، كانت والدتي دائمًا تقول لي:

– احرص عليهما ولا تفرط فيهما أبدًا؛ فهما من ريحة والدك.

بل أكدت لي خلال أيامها الأخيرة بأنها تحتفظ بمجموعة من الجنيهات داخل جيبٍ سري خاطته في خلف واحدة منهما، وكانت تقول:

– هذه الجنيهات الذهب، ومع ما حصلنا عليه من مال سوف يتيح لك الفرصة لشراء بيت مِلك، فالانسان بدون بيت لا قيمة له، البيت يا ولدي مثل الأرض هي الشرف، والعرض.

الله يرحمها كانت امرأةً نادرة، ومسكينة، لم تتمتع بحياتها مثل بقية النساء، وهذا قدرها، وحظها في الدنيا، وآخر كلماتها قبل وفاتها، مطالبتها لي أن أتعبَ في جمع المال، وبطرقٍ شريفة؛ فالمال والأولاد زينة الحياة، ومتى كان عندك مال، الجميع ينظرون لك باحترام أكبر.

ما أن بدأت العمل في مشروعي الجديد السقاية، حتى حققت نجاحًا كبيرًا، وفاتحة خير، فجميع بيوت الحي كنت أقوم بتوصيل المياه لهم من خلال قِرَبِ الماء التي كنت أحملها في عربة «القاري»، وكانت القرب داخل العربة تهتز، وتتراقص بفعل وزنها، والماء، إضافةً إلى القِرَبِ المعلقة في جوانب العربة، وكنت عندما أحملها على كتفي، أو ظهري، تهتز أيضًا فكان بعض الأطفال يتقافزون، ويتضاحكون، ويقولون (طالع قربة الماء على ظهرة تتعطعط)، ومن يومها صرت معروفا بهذا الاسم: «عطعط».

ثم ظهر في الأفق «مسمار»، وكان شابًا طويلاً نحيفًا دقيق الملامح قمحيَّ اللون، تعرفت عليه في «عين الحارة»، وكان يحمل الماء على حماره بدون عربة، وطلبت منه أن ينضم لي براتب شهري، فوافق سعيدًا، خاصة، وهو سوف يقود العربة، ويجلس على مقعد القيادة، بدون تعب الركوب على ظهر الحمار، كنت بحاجة إلى من يساعدني في توصيل المياه، فهناك عشرات البيوت التي ارتاحت لتعاملي، وبعضهم كان يعرفني تقريبًا من أيام الخبز، والحلويات.

حتى بيوت الحي الذي كنت أسكن فيه، أصبح لي فيه عملاء، ومع الأيام، رُحْتُ أقوم بتوصيل المياه إلى دكاكين، وحوانيت السوق، وبعدها طُلِب مني القيام برش أرضية السوق، والمنطقة المحيطه به، في فترتين، صباحية، ومسائية، وكثر المال لدي بفضل الله، واشتريت بستانًا صغيرًا في منطقة قريبة من «عين أم سبعة»، وأجَّرْته على أن يكون لي الحرية في الحضور إليه وقت أشاء، مع زوجتي، أو أصحابي، أو حتى بعض الفتيات اللواتي تعرفت عليهن من خلال الخبز والحلويات أو من خلال عملي في السقاية.

وكنت أيضًا أقوم بتوصيل النساء، والفتيات في مشاوير لعيون المياه، أو البساتين الخاصة بهم، وقد لا تصدق أنني أبدا لم أتعرض لامرأةٍ، أو فتاةٍ بسوء، فكنت أحترم البيوت، وأصحابها، فلها حرمة، واعتبارات كثيرة، كالدين، والأعراف، والتقاليد، ووضع المجتمع المحافظ، إضافةً، إلى أن الواحد يخاف على سمعته، ومع هذا إذا دعيت من قبل إحداهن، ووجدتها تستأهل لا أتأخر أبدا.

بعد شهورٍ من عمل «مسمار» معي، قال لي ذات مساء:

- تحب المزاج؟

فأجبته:

- أي مزاج؟

قال:

– معقولة... رجال مثلك مزيون والله عطاه خير ولاتعرف المزاج؟!

أجبته:

– صدقني لا أعرف.

قال لي باسما وهو يستند على عمود العربة المعلق على ظهر الحمار:

– خلاص الليلة موعدنا في المسجد المجاور لبيتنا، بعدها سوف نذهب في زيارة خاصة لبيت واحد معرفة، وأفضل لو أحضرت معك ثلاث جنيهات ذهب، وكم ريال، يمكن يتحقق حلمك الليلة، ويكتب لك الله نصيبًا في فتاةٍ بكر.

نعم بعد زواجي من أمينة الأرملة، صار هاجس الزواج من فتاةٍ بكر عذراء يتردد على خاطري، بل ويشغلني لفترة طويلة، بل إنني لم أتردد من إخبار من أثق فيه بهذا الهاجس، والرغبة، لم أجد لذلك تفسيرًا، فأنا متزوج، وشبعان زواج من أمينة، لكن الزواج من فتاة كان أشبه بالأمل الذي يتطلع إليه الإنسان من يوم بلوغه، وشعوره برجولته، تنفيذًا للغريزة الساكنة في أعماقه، ولمعرفتي بأن مسئولية الزواج ليست مسئولية سهلة، فكيف، وعندما يكررها الرجل مرة أخرى.

في داخلي شعور يطلب مني أن يكون زواجي الثاني زواجًا ممتزجًا بالعاطفة، والعقل معا في انتقاء زوجتي الجديدة، على الرغم من كون زوجتي، وكما أخبرتك سابقا متميزة، إلا أن هناك شعورًا خفيًا يطاردني، ويدفعني إلى التفكير في تجربة الزواج من فتاة بكر، عذراء لم تكشف على رجل قبلي.

عندما كنت أستحم كنت سعيدًا، وكنت أغني أغنية أحبها، طوال الطريق، حتى وصولي للمسجد، وفكرة الزواج، والفتاة العذراء تسيطر على تفكيري، وأنا أمني النفس بزواج يحقق أحلام، وأمنيات والدتي رحمها الله، كان المساء رطيبًا نديًّا مائلاً إلى البرودة، والنسيم لطيفٌ، يَهُبُّ من غابات النخيل المحيطة بالمدينة، والسماء صافية، شعرت بتفاؤلٍ كبيرٍ بهذا اللقاء، عندما انتهيت من الصلاة رحت أصلي صلاة الاستخارة، بعد الصلاة أحسست براحة، واطمئنان عجيب، اتجهنا جميعًا أنا، ومسمار، ورجلٌ آخر، قال إن اسمه «عيسى»، وهو قريبٌ للفتاة.

وصلنا إلى بيت «عيسى» كان بيتًا بسيطًا، بابُه الخشبي مزدانٌ بمساميرَ ذات رؤوس كبيرة سوداء، وفوق كل فتحة من فتحات الباب الكبير حلقة نحاسية من النوع الثمين، دخلنا إلى مجلس البيت بعد مرورنا بدهليز بقرب المجلس، أصرَّ «عيسى» أن أجلس في صدر المجلس، وبجواري جلس «مسمار»، كان عيسى يرتدي ثوبًا ناصع البياض، وغترة، وعقال، وكنت نفس الشيء أرتدي مثله، إلا أن ثوبي كان قماشه من نوع «البافتة»، وكان يعتبر من الأقمشة الجديدة في الأسواق.

«مسمار» قال:

- سوف أذهب لانتظار المأذون في ناصية «الفريج».

كانت دلائل الصحة، والخير بادية في وجه «عيسى»، عيناه تلمعان ببريق غريب، لم أرتحْ لنظراته، رحب بي كثيرًا، وقال بتكلُّفٍ: إن قريبته معجبة بي، وكانت تخطط لهذه الزيارة، وأن يكون بيني، وبينها نصيب بعد رؤيتها رؤية «السُنَّة» الشرعية، فإذا كتب الله النصيب فسوف يعقد المأذون عقد النكاح الليلة، على أن تكون الدخلة بعد أيام في بستاني.

كان «مسمار» قد أخبرني عن الموضوع، وطلب منِّي أن أحضر معي المهر، وكنت في الواقع مستعدًا، فقد ارتديت أحسن ملابسي، و لم أنس أن أتعطر بدهن العود، ولازالت كلمات «مسمار» لي هامسًا:

- الزواج الثاني مزاج، بس لا أوصيك، هذا المزاج يحتاج لمن يكتم السر، وإلا ما يصير مزاج.

أجبته وأنا غارق في تياراتٍ جارفةٍ من الحيرة، والرغبة في معرفة هذا المزاج:

- كيف يصبح حقيقة؟

- اطمئن، عندك واحد جاهز، أنت احفر... وأنا أدفن.

صعد على العربة، وقال:

- اتفقنا.. !!

ها ذا أنا الآن على وشك الزواج، ولا تفصلني عن مشاهدة زوجتي الجديدة إلا سويعات، متى ما قرر قريبها «عيسى»... خواطر، وهواجس شتَّى تلعب بفكري، وتذهب بي بعيدًا عن هذا المجلس... هل يطاوعني قلبي، ويخبرني لماذا هو يخفق الآن بشدة عندما قال لي «عيسى»:

- تفضل شوف خطيبتك شوفة «السُنَّة».

شعرت باضطرابٍ، تضاعفت خفقات قلبي، لم يحدث لي سابقًا مثل هذا، وقفت، رحت أردد بعض الأدعية التي كنت أحفظها، نظرت إلى «عيسى» مفتوح العينين دون أن أنطق كلمة، سِرْتُ خلفه، وأنا أسحب خطواتي التي باتت وئيدة ثقيلة، كان الظلام حالكًا، نور الفانوس الذي يحمله «عيسى» لم يكن قويًا، بعد خطوات دخلنا غرفة بجوار المجلس كان بها «أتريك»، بدا النور أكثر إضاءة، كانت الفتاة الخطيبة تجلس في زاوية من الغرفة، كانت متشحةً بعباءتها المقصَّبة السوداء، وتخفي وجهها خلف «ملفع» من نفس اللون، لاحظت يديها، كانت بيضاء مخضبةً بالحناء، طلب «عيسى» أن أجلس في الزاوية الأخرى، وجلس هو بيننا بعدما وضع الفانوس الصغير أمامه، الذي كان نوره يكاد يتلاشى أمام نور «الأتريك».

طلب «عيسى» من الفتاة أن تكشف وجهها، شعرت بحرجها من ارتعاشة يديها، وبعد تردُّد، رفعت «الملفع»، فأشرق وجهها الجميل، وبدت كنجمة في ثوبها التراثي المطَرَّز، والذي انكشف جزء منه عند كشفها لوجهها، اتسعت الدنيا في عيني، اهتز قلبي بعنف، شعورٌ من السعادة ينساب في عروقي، حمدتُ الله كثيرًا، و لم أتردد أن أقوم، وأُصلي ركعتين شكرًا لله، وسط دهشتهما.

قال «عيسى» بعد أن انتهيت من الصلاة:

- أكيد أعجبتك؟!

أجبته، وأنا أكاد أطير من الفرح:

- إلاَّ أعجبتني، أجل... ليه صليت الآن، غير لشكر الله الذي منحني هذه النعمة، المهم، أنا أعجبها؟!

فإذا بها تقول:

- الحمد لله، نفس الشعور... بس ما أتصور أن هناك مانع أن نتزوج الليلة، الواحد ما يضمن عمره، إضافةً إلى أن هناك من تقدم لخطبتي من والدتي، واحد صاحب أملاك، وعنده ٣٥٠ «مغرس» نخيل.

ثم قالت:

- مالك على يمين، إنني أُفضِّل أكون خدامة عندك، وحتى عند زوجتك على الزواج بهذا الرجل، أو غيره، لا أتصور أني أنام مع واحد غيرك، صدقني يا «عثمان» أنا شاريتك، وفرصة أنك تشتريني تقريبًا الليلة ببلاش، يعني ولو ريال فضه.

قال «عيسى» باسمًا، ومازال الغموض مرسومًا في عينيه:

- إذن؛ على بركة الله.

ثم رددنا جميعا:

- على بركة الله.

كانت صور الأشياء تهتز في ذهني، بات كل شيء جميلاً، ورائعًا، وملونًا، هذه ليست غرفةً مضاءةً بالأتريك، إنما هي ساحة كبيرة تشرق فيها الشمس، لا إنها سماء واسعة يضيء فيها القمر الجالس أمامي الآن.

بعد تَبَادُلِنا الأحاديث المختلفة، والبسيطة، وشُرْبِنا القهوة، والشاي، أشار «عيسى» إلى نهاية وقت «شوفة» السنة، تمنيت لو تتوقف اللحظات، وتتجمد حتى أستطيع أن أراها أكثر، وأستمع إلى كلماتها البسيطة، والحلوة.

عدنا أنا، و«عيسى» إلى المجلس، كنت سعيدًا، كل شيء حولي فرحٌ: جدران المجلس الجِصِّيَّة، «الوجاق»، ودلال القهوة، والأواني التي بدت لامعة كأنها تشاركني الفرحة، رحنا نتحدث عن لعبة الحظ في هذه الحياة، وكيف، أُعجِبتْ «أنيسة» بشخصٍ مثلي، وكيف قررتْ متجاوزة عرف، وتقاليد أسرتها بالزواج مني، لم يخبرني «عيسى» عما أخذه من مال، وعقار من «أنيسة» في سبيل موافقته على هذا الزواج شبه المستحيل، لكنه قال واثقًا:

– لقد بذلت «أنيسة» الكثير من أجل هذا الزواج، بل إنها ضحَّت حتى بالكثير ممن تقدموا لها، هناك سرٌّ ربانيٌّ وراء موافقتها، وحرصها عليك، بل وسعيها إليك بصورة عجيبة؛ لذا لا أوصيك عليها؟

لم أتردد، قمت، وقبَّلت رأسه، وأنا أقول:

– ثق تمامًا أنها سوف تكون معي – إن شاء الله – في سعادة تامة، والأيام سوف تؤكد لك ذلك.

قال «عيسى»، وهو يحرك الجمر تحت إبريق الماء الموضوع على موقد «الوجاق» استعدادًا لعمل قهوة، وشاي جديدين عندما يصل المأذون:

– صدقني يا «عثمان»، إنك إنسان محظوظ، وأمُّك دعت لك كثيرًا، فقريبتي «أنيسة»، كان من المفروض أن تكون من نصيبي، لكن باتت أختي من الرضاع، وهذا شيء خارج عن الإرادة.

ابتسمت في سعادة، وجذل، وقلت:

- الحمد لله أنني مارضعت معها، وإلا....

ضحك «عيسى»، وهو يحرك حبيبات القهوة في «المحماس» لتحميصها، أثناء ذلك، سمعنا طرقًا على الباب، وصوت «مسمار» ينادي على «عثمان»، بسرعة، نهض «عثمان» بعدما وضع «محماس» القهوة جانبًا، وهرول ليفتح الباب، كما لو كنت في صحراء «الربع الخالي» تائهًا، وحذرًا، تطلعت إلى المأذون، رجلٌ قصير القامة، ممتلئ الجسم له لحية لم يحسن تشذيبها، ثوبه من النوع الخفيف، وغترته بيضاء بدون عقال، تكاد أن تسقط من رأسه، الذي بدا واضحًا من خلال طاقيته المخيطة يدويًا، أخذ نفسًا، وهو يجلس متربعًا،قال بعد أن تصافحنا:

مخاطبا «عثمان»:

- عساكم جاهزين... ترى عندي أكثر من ملكة الليلة، والوقت ثمين.

أجابه «عيسى»:

- أطمئن، طال عمرك! أنا وكيل العروس، وهذا هو العريس، وعندنا «سعد» (مسمار) شاهد، وجارنا «بو حمد» شاهد.

ثم أكمل مخاطبًا «مسمار» بأن يذهب لبيت «بو حمد» ليطلب منه الحضور؛ للشهادة على الملكة، ووجدتني أرتعش صامتًا في هذا المجلس، هل هي

ارتعاشة السعادة؟ أم ارتعاشة الخوف؟ من «أمينة»؟ وهل تشعر بي الآن؟... مشاعرُ مختلفةٌ تملأ نفسي، أحسُّها تنساب في كل مكان من رأسي حتى قدمي.

رُحت أردِّد بعض الأدعية، ما هي إلا دقائق، وعاد «مسمار»، ومعه «بو حمد»، رجلٌ يبدو من هيأته أنه من أصحاب الأملاك، حسن الهندام، والشكل، يرتدي صديرية كحلية، على ثوبه السواحلي، غترته البيضاء مطعمة بورود بيضاء، سلَّم علينا جميعًا، وجلس بجوار المأذون.. بعد أن تناولنا القهوة، والشاي، وبعض حبات الرُطَب الهلالي.

بدأ المأذون في إجراءات عقد النكاح حسب المُتَّبع، بعد العقد تناولنا طعام العشاء، وكان عبارة عن كبسة بالدجاج المحشي بالرز، والمكسرات، كانت الطبخة لذيذة، وشهية، بدا ذلك واضحًا من تناول الجميع محتويات الصحن الكبير، بعد العشاء قدم لنا لبنًا طازجًا، أحسسنا بعدها بالشبع، اتفقت مع «عيسى»، و«مسمار» أن يكون اللقاء القادم في «البستان» مساء الغد، خرجنا من البيت بعدما، ودعت زوجتي الجديدة، عند ركن الطريق المتفرع من السِكَّة المؤدية لبيت زوجتي «أمون»، ابتسم «عيسى»، ووخز الحمار بعصاه، وانطلقت العربة، تلاحقها نظراتي، وعشرات من علامات الاستفهام.

بعد ذلك مباشرة، عدتُ إلى البيت، وأخبرت زوجتي «أمون» أنني معزومٌ على العشاء مساءَ اليوم التالي، وربما أتأخر، أو حتى أنام عند أصحابي، فأنا معزوم خارج المدينة، ولو عدتُ متأخرًا قد تكون بواباتها مغلقة.

في طريقي للبستان مررت بـ«عين أم سبعة»، وسبحت، وغيرت ملابسي، كان البستان غير بعيدٍ من ربوع العين، حالما وصلتُ البستان قمت بفتح غرفتي الخاصة، وأشعلت الأتريك، «أبو حسن» مستأجر البستان لم يكن موجودًا، فعادةً لا ينام فيه إلا ومعه مجموعة من أهله، أو أصحابه، خوفًا من حرامية النخيل، وهم كثيرون في ذلك الوقت زمن الجوع، والحاجة، واللصوصية، إضافةً إلى أن الموسم ليس موسم «صرام» يتطلب منه حراسة التمور، واللصوص لا يفضلون سرقة الرطب لأنه لا ينفعهم، ولا يفيدهم طوال العام مثل التمر، الرطب زمنه قصير جدًا، لذلك لا يحرص أصحاب المزارع، والبساتين على النوم فيها إلا أيام موسم «الصرام».

كان صوتٌ يتردد في هواء البستان، ويحرك المشاعرَ، مثيرًا شيئًا من الرهبة، مع نباح بعض الكلاب التي يصل نباحها ضعيفًا، قمت بعدها بإشعال الفانوس، ورُحتُ أتجول بين أشجار النخيل، وأتفقد أشجار الليمون، والنارنج، والخوخ، والتين، لم تكن أشجار الفواكه في البستان كثيرةً، لكنها تضفي نوعًا من الجمال، والتوازن بين أشجاره، وأوراقها – وبالذات الليمون، ورائحتها الزكية التي تنتشر في المكان – باعثة الراحة النفسية لمن تصل إليه خلف الغرفة.

رُحتُ أزيح التراب عن غطاء من سعف النخيل، والخيش، فأخرجت من تحته خيشةً كبيرة كنت أضع فيها آلة العود، نسيت أن أقول لك إنني تعلمت العزف على العود، واللعب بأوتاره من والد أحد أصحابي في حارة بيتنا القديم، عندما ذهبت مع «منصور» ابن جارنا العجوز لبستانهم، حيث يلتقي هناك بعض معارف والد صديقه «سعد»، وكان بعضهم من هواة الغناء، والطرب.

هذه اللقاءات، والجلسات التي كنت أحضرها في هذا البستان فجرت مواهب دفينة داخلي، فبدأت أتدرب شيئًا، فشيئًا على العزف، ومن ثم الغناء، ولم أكن أهدف أبدا أن أكون مطربًا، أو مغنيًا بقدر ما كنت أريد التسلية، وممارسة هواية في أوقات الفراغ، رغم أنها أوقات قليلة جدًا بحكم ارتباطي بالعمل في إنتاج الخبز، والحلويات، لكن كنت أتبع المثل الشعبي الذي يقول(في طريقك شل حصاه)، يعني الواحد يجب أن يستفيد من أي شيء حوله، وفي الماضي لم تكن هناك أمور تشغل الناس، الجميع كان اهتمامهم الأول توفير لقمة العيش، ومع هذا كان يوجد وقت فراغ كبير، خاصةً في الفترة المسائية، وكان البستان قريبًا جدًا من المدينة.

واستطعنا أن نكون علاقة جيدة مع العاملين في أكثر من بوابة، حتى يسمحوا لنا بالدخول لو اضطر أحدنا لظرف ما العودة للمدينة في وقت متأخر، ونادرًا ما يحصل ذلك حيث تعودنا النوم في البستان حتى

الصباح، واكتشف الأصحاب، والأصدقاء قدراتي، وإمكاناتي في تقليد الحركات وحتى الأصوات.

كنا فتيان، نتمتع بالشباب، والقوة، والصحة، وجميعنا تقريبًا أحوالنا ميسورة، لسنا أغنياء، لكننا نعيش حياة أفضل من غيرنا، في زمن كان الناس يبحثون عن كسرة الخبز، مع أن سكان المدينة، والمدن، والبلدات المجاورة لها كانوا يعيشون حياة أفضل من بعض سكان الكثير من المناطق، بل إن هجرات كثيرة كانت تشهدها مدننا، فلا يمرُّ أسبوع، إلا وتسمع بأن هناك من يبحث عن بيت للإيجار، وكان هؤلاء قد قدموا من مدن بعيدة للبحث عن عمل، فمنطقتنا كانت، ومنذ القدم منطقة، واحات، وأرزاق بفضل الله، حيث تتوفر فيها ينابيع وعيون المياه بكثرة، وكانت الزراعة تعتبر من أكثر الأعمال، والنشاطات الإنسانية، مع التجارة، و ممارسة الغوص.

وبالتالي كان أبناء المنطقة محظوظين كثيرًا بما أنعم الله عليهم من أرزاق، وخير، والذي يريد أن يعمل سوف يجد عملاً، في البساتين، والحقول، والمزارع، كأجيرٍ، أو عاملٍ، أو شريكٍ في زراعة، أو في الأعمال الأخرى المساندة للزراعة، أو التجارة، أو حتى في الصناعات، والحرف اليدوية، لقد كانت المنطقة غنية بتراثها، وصناعاتها، وحرفها اليدوية، وعَبْرَ التاريخ، اشتهرت بصناعات متميزة، ورائدة حتى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض، وما عليها: صناعة المشالح، والعِبِي، الملابس النسائية، تعبئة

التمور، وتصديرها، المجوهرات، والذهب، والحُلي، صناعة الجلود بأنواعها، والأحذية الرجالية، والنسائية.

وفي هذه الفترة بدأت أشعر بأن لدي مواهبَ، يجب الاستفادة منها ضمن إطار الأصدقاء، والأصحاب، فلماذا لا أستفيد من موهبتي في العزف، والغناء، والتقليد، إذا كان هناك من يُقَدِّر مواهبي من بين مَن ألتقي بهم، وأجالسهم، وفي الجلسات الأخوية، والسهرات الشبابية يكون الإنسان أكثر تحررًا، وتبسُّطًا مع الآخر، فكنا نتحرر من التقاليد، والعادات، وحتى من بعض الأعراف، فكنا نرقص «نزفن»، وأحيانا تكون بيننا بعض الفتيات التي كنا نقوم بتهريبهم في ساعات النهار خارج بوابات المدينة، بحجة الذهاب للبساتين، أو عيون، وينابيع المياه، أو الفتيات اللاتي يتم جلبهن من مدنٍ أخرى، وما أكثرهن زمن الفقر والحاجة.

في هذه الجلسات الطربية، والراقصة، وحتى الماجنة تعلمت الكثير، وفيها بدأت أستفيد من إجادتي للغناء، والرقص، والتقليد، والحصول على النقوط، في البداية كان الأصحاب، وفي قمة مرحهم، ووناستهم يهدونني ريالات الفضة، ومع الأيام كنت أشترط الحصول على المال، إذا أرادوا مواصلتي في إمتاعهم بمواهبي، وقدراتي، والتي كانت نادرة في مجتمعٍ محافظٍ جدًا، يمارس هواياته والأشياء التي يعشقها، ويموت فيها بصورة سرية.

وسألت نفسي ذات يوم هل أخبر، والدتي – الله يرحمها – بأن مواهبي، صارت تجلب لي المال أكثر من خبزها، وحلوياتها التركية، والشامية، وبصراحة لم تكن لدي الشجاعة أن أخبرها بذلك فأنا أبن الأسرة، ووالدي عسكري تركي محافظ، والذي يبدو أنه هرب من رؤية مستقبل ابنه.

هل حقيقةٌ موته في تلك الليلة ضحيةً لقطاع الطرق، ولصوص القوافل الموتورين؟ لقد مضت شهور دون أن يعثر أحد على جثته، (لا لم يهرب كما تصور البعض فلقد كان عسكريًا شجاعًا، شجاعته، وحيويته وراء اختيار قادته بإرساله مع الحملة إلى هذه الأرض الطيبة، أبدًا لم يكن جبانًا)، هكذا دائمًا تردد والدتي عند ما أطرح عليها سؤالاً عابرًا، أو خبيثاً عن سرّ الاختفاء، أم أنه وجدها فرصةً للهروب، والعودة إلى بلاده صاحبة الحضارة، والتاريخ، والتطور.

كم مرة شرح لوالدتي – كما كانت تقول – عن بلاده، وجمالها، وروعة الطبيعة فيها، وما تزخر به أسواقها من بضائع، ومنتجات رائعة، حتى أماكن التسلية البريئة منتشرة في مدنها، والمقاهي التي يلتقي فيها الأصدقاء والأصحاب وهم يدخنون الشيشة،أو يلعبون الشطرنج، والدومينو، ترى، هل عاد إلى دياره من غير رجعة؟ رُحتُ أتساءل في حيرة، وأردد في خوفٍ خفي: (هل – يا ترى – لو كان موجودًا الآن، هل يقبل، أو يسمح له بممارسة الغناء، والرقص؟ ومنادمة الأصحاب من أجل حفنة ريالات؟)

لم أستطع إخبار والدتي بحقيقة ممارساتي، خطر لي هذا كله، وأنا أحمل العود الذي أخرجته من الحفرة.

وفي طريقي للغرفة إذا بي أشاهد «مسمار»، ومعه «عيسى»، و«أنيسة»، هكذا بدت لي بعباءتها المقصبة، أكثر ضخامة، دنوت منهما مرحبًا، وأنا أشعر بنوعٍ من الدهشة المفرحة، بل لم أستطع أن أمنع نفسي من الخوف، فوجود امرأة في البستان، وفي الليل، أمرٌ مثير للقلق، والخوف.

وإذا بـ«مسمار» يفاجئني بالقول:

- بالمبارك عساك جاهز للمزاج، عرسك الليلة هنا كما طلبت زوجتك، وإن شاء الله الليلة تخليك تنسى نفسك، وأهلك، يا عمي، وبعد أهلي.

ثم قال:

- نسيت أقولك.

تراكضت أقدامنا، ونحن ندخل الغرفة، وتراكضت في داخلي مشاعر شتَّى، حيرة، رغبة، تساؤلات، خلعت «أنيسة» العباءة الثقيلة، فبدت كدانة مضيئة، خرجت للتو من محارتها السوداء، وأشرق نورها في الغرفة؛ لينافس بقوة نور الأتريك، كانت فتاة رائعة الجمال، ذات عينين واسعتين شديدتي السواد، وشعر بضفائر طويلة، وأنف دقيق، وصغير.

لم أتمالك نفسي، وبتلقائية، وأنا أنظر إليها بذهول، وأردِّد:

– سبحان الله... سبحان الله.

ابتسمت بعذوبة، وقالت:

– لا تنافق.

وضربتني بحنان على كتفي، كانت ترتدي بخنقٍ طويلٍ مطرزٍ بالترتر، وخيوط البريسم، زاد من إشراقة وجهها البيضاوي، فيها شيء من جمال والدتي، لكنها كانت أجمل، وغنجها زاد جمالها أكثر، جلستْ في صدر الغرفة على استحياءٍ على الوسائد، وفي استرخاء واضح.

قال «عويس»:

– لا تلوم «أنوس» علشانك تعبت اليوم .. تصدق، المسكينة من الصباح وهي تستعد لهذه الليلة المبروكة.

قال ذلك، ورمى بغترته جانبًا، وقال مخاطبًا «مسمار»:

– مانبغى الوقت يسرقنا، أنا أروح أجهز العشاء... فيه هنا حفره للمندي؟ ولاّ نطبخ كبسة؟

التفت إليه «مسمار»، وقال:

– الرأي لـ«أنوس».

رددت بيني وبين نفسي: («أنوس» فاتنة النفوس تحب لحم التيوس)، فإذا بي أقول:

- خليها مشوي تيوس.

فقالت ضاحكة:

- على شرط تكون هيوس.

ضحكنا جميعا، وخرج «مسمار»، وصاحبه... دنوتُ منها، رغبت أن أحتضنها، أُقَبِّلها... حييتها مرةً أخرى، قلت:

- لها هذه تحية خاصة، الليلة مباركة، سبحان الله، يطلع علينا قمر في ليلة النصف من الشهر مرتين.

- أخيرا شفنا بعض... من زمان، وصاحبك «مسيمير» يتحدث عنك، وعن مواهبك، وجمالك.

- قالتها وهي تعض باسنانها اللؤلوئية شفتها السفلى.

قلت، وأنا أحاول المزاح نوعًا ما:

- صدقيني، لو الواحد يعرف أن المزاج بهذه الصورة كان سأل عنه، أو حتى باع نفسه في سوق الخميس من أجل هذا اللقاء.

قالت بغضبٍ، بعدما أرتعش جسدها، كأنها وردة أمام تيار هواء:

- ماذا تقصد بالبيع والشراء؟

قلت في وجل وأنا مستغرب من ماحدث لها:

- خير... ما قصدت إلاَّ الخير، يمكن أنت فهمتي قصدي غلط.

قالت بعدما تراجعت إلى الخلف مسندةً ظهرها على المسند، ويدها خلف رقبتها:

- يمكن قالك «مسيمير» عن أصلي، وفصلي، أصل ها الديرة شغلها الشاغل الأصل والفصل، ما ينظرون للإنسان كانسان، أهم شيء من هو، ومن هو أبوه، قالولك الإنسان جاي من داخل عين نجم.

ثم قالت، وهي تقوم بعدما مدت يدها البيضاوية لي؛ لأساعدها في الوقوف:

- نفسي أتمشى في بستانك.

خرجنا معًا، كان الجو لطيفًا، والقمر منيرًا، قلت لها، وأنا أُشير إلى القمر، الذي كان يبدو من خلال سعف النخيل، وأوراق الأشجار:

- انظري ألم أقل لك، إن القمر طالع الليلة مرتين.

أجابت ضاحكة:

- بصراحة، أنت تبالغ، إلاَّ اسمح لي، سمعت أنك متزوج، زوجتك حلوة مثلك؟

أجبتها:

- حلوة، بس أنت أحلى منها، ومن كل الزوجات.

اقتربت من شجيرات «المشموم» الريحان، وقطفت مجموعة من الأغصان، ومدتها لي، وقطفتْ أخرى وراحتْ تشمها، وقالت:

- ما شاء الله، مشمومكم زين، قلت لها من الليلة بيصير أزين، وأحسن.

عادت تقول:

- ليه المتزوجين أكثر خطورة من العُزَّاب؟

أجبتها:

- أبدًا، بس لكل واحد ظروفه... هناك من هو متزوج من فتاة جميلة، لكنه ينقصها شيء، ما فيه أحد كامل إلا الله.

قالت:

- بعد خطير، وفيلسوف، أنا لو من زوجتك أحجر عليك، واسمح لي أربطك في عمود الرواق داخل البيت.

قلت لها:

- شوفي يا «أنوس»، الزواج مثل الزجاج، لا يمنع رؤية النور، والنور اللي مثلك يطيح عليه الواحد، مثل ما تطيح الفراشات الملونة على نور الأتريك.

وقالت بعدما أخذت يدي في يدها، وضغطت عليها برقة:

- كلماتك تجنن... أكيد أنك مجنن زوجتك، بصراحة، تنحسد.

لم أنبس ببنت شفه، فقد رحت أتطلع إلى وجهها الجميل المضيء كالقمر الذي يضيء الكون، وتملكتني رغبة لتقبيلها تحت ضوء القمر، تشجعت، وقلت لها:

- في نفسي شيء، أشعر بخجل أن أقوله

لحظتها، كانت تنظر إلى القمر من خلال سعف النخيل، ونوره المضيء ينعكس على وجهها فيزيده ضياءً، وطرفت بعينيها بين آن، وآن، ثم قالت:

- عمومًا، ما بين الأحباب خجل، ويقولون، اللي يستحي، أو يخجل من ابنة عمه، ما يجيب ولد، ولا تحتاج أوضح أكثر.

كانت مشاعره، وهو يسمع كلماتها ترتعش في ذهنه، كان مترددًا هل يقدم؟ هل يفعلها؟ إنه لا يريد أن يجيب ولدًا الآن، إنما يريد احتضانها، وتقبيلها قال، وهو يقترب منها أكثر:

- لا أستطيع المقاومة، اسمحي لي.

اقترب أكثر، أخذها في صدره، وراح يُقَبِّلها في شفتيها، وعنقها.

- آه.

قالتها بغنج، ثم قالت، وهي تسحب رأسها من بين يديه:

– أنت بتاكلني، ما بعد انتهى العشاء، نسيت نفسك، إلى هذه الدرجة أنت جائع... هذا، وأنت متزوج، كيف لو كنت «عزابي»».

نظر إليها في عتاب، وهي تفرُك بيديها كتفيها، وقالت:

– أشعر بالبرد... تعال نرجع الغرفة.

اتجهنا معًا، يدانا في عناق، وهمس، دخلنا، والدخان مازال يتصاعد من «الوجاق» حيث كان إبريق الشاي يسترخي على النار، قالت بعدما اقتربتْ من الوجاق:

– تحب أصُب لك «بيالة» شاي، أجبتها على شرط، نشربه سواء، أنا رشفة... وأنت رشفة.

قالت :

– غالي، والطلب رخيص.

وراحت تصب الشاي، وأنا أتطلع إليها، وإلى جمالها، ومفاتنها المختلفة، كانت تهم أن تقول شيئًا كلما التقت نظراتنا، وكدت أقول لها: (أشعر بأن هناك شيئًا ما تخفينه، لماذا لا تكونين صريحةً معي، وتكشفين ورقك، من أنت؟ ما هي حقيقتك؟ وكيف توصل «مسمار» لك؟ ولماذا كنت تسألين عني؟ وهل أنا لهذه الدرجة مهمٌ جدًا بالنسبة لك؟)، رحت أتساءل في

حيرة، كانت نسمات الليل الباردة بدأت تتسلل لداخل الغرفة، خاصةً، مع رطوبة البستان، وأوراق الأشجار، فعندما تهب النسمات على الأرض المبللة بالمياه، أو على الجداول، كانت تحمل شيئًا من رقة، ونعومة الماء، وتنتقل بعدها إلى أجواء الغرفة لتداعب أجسادنا.

اقتربتْ مني، ناولتني «بيالة» الشاي، رُحت أرتشفه بلذة، ثم ناولتها «البيالة» ابتسمت، رشفت في دلالٍ رشفةً، ثم قالت:

– أح... لقد حرقت لساني.

أشارت بإصبعها لي دون أن تتكلم، ثم قالت، وهي تتراجع إلى الخلف مستندةً على المسند:

– كلُّه منَّك... كلَّها ساعة، وطيرت عقلي، جعلتني أشرب الشاي، وهو حار، كيف أعالجه الآن؟

بسرعة اقتربت منها، وقلت لها، وأنا أمسك برأسها:

– خليني أشوف لسانك، يمكن تكذبين عليَّ.

أخرجت لسانها لكي أراه، وإذا بي أُقَبِّله، وأنفخ عليه، وكدت... لكنني ترددت عندما رأيت تأثير حرارة الشاي في مقدمته.

في هذه اللحظة، دخل علينا «مسمار»، وقلت له، وعلى شفتي ابتسامة ملؤها التقدير:

– لقد كان المزاج رائعًا... البنت تجنن، ومن أجل ذلك سوف تكون لك الحلاوة.

قال بعدما اتجه إلى دولاب صغير بالغرفة :

– على شرط يا عمي، ما تكون حلاوة تركية، ولا شامية، نريدها فلوس.

حمل علبة البهارات المعدنية، وخرج، شاهدت في أسارير وجهها ابتسامةً، ثم طالعتني بعينين فيهم سعادة، وبهجة، ووضعت يدها خلف رأسها، وراحت تسترخي على الوسائد، ثم قالت:

– صاحبك «مسيمير» يموت في الفلوس، يبيع أهله علشان ريال فضة.

قلت، وأنا أحتسي الشاي:

– ماذا تعنين؟

قالت:

– أعني أنه ممكن يبيع نفسه، من أجل الحصول على الفلوس، حتى أنت ممكن يبيعك، من أجل واحد يعطيه فلوس أكثر.

شعرت بانزعاج، وضيق، ثم قلت:

– بيني وبينه عشرة، وعيش، وملح، ما أتصور أنه يخونني من أجل واحد يزيد عليَّ.

ضحكت، ثم قالت:

- عمومًا، الحذر واجب، وسوء الظن من حسن الفطن.

قلت في ضيق:

- هل هذا يعني، هناك محاذير؟

قالت بصوتٍ خفيضٍ:

- احذر في هذا الزمن، حتى من ظلّك.

قلت ضاحكًا:

- حلوة، وحكيمة؟

قالت:

- الآن فقط اكتشفت؟! ليلة الشوفة، ألم تكتشف هذه الحلاوة؟

- لقد اكتشفتُ، بل وصليت لله شكرًا، لكن كل يوم الإنسان يكتشف جوانبًا جديدة في الآخرين.

ابتسمت، وقالت:

- عمومًا، الأيام تعلم، مع أني ما تعلمت في «المطوعه» إلاّ الشيء البسيط، بس - الحمد لله - أعرف أكتب، وأقرأ، لكن البركة في والدتي، علمتني الكثير.

قلت لها معجبًا:

- صحيح، الأيام تعلم، لكن في هذه الأيام، قليلاً ما يشوف الواحد بنات يتمتعن بوعي، وأدراك.

قالت:

- هذا يعود للبنت نفسها، ولأسرتها، يعني التربية لها دور في وعي البنت.

ثم أضافت:

- من حسن حظي أن والدتي كانت قبل أن تخطف، وتباع لأحد التجار - والذي باعها لوالدي رحمه الله - كانت متعلمة.

فاجأتني كلماتها، دهشت، ثم قالت:

- ألم تلاحظ في البداية، عندما تضايقت، حينما ذكرت البيع، والشراء، كنت أتصور أنك تعرف أصلي، وفصلي! لكن الآن يجب أخبرك بالحقيقة... أنا أمي أصلها أجنبية من بلاد الترك خُطِفَتْ - كما أخبرتني - عندما كانت متجهة من قريتها إلى مدرستها، وبيعت لتُجَّار العبيد، وكانت هذه التجارة قبل عقود منتشرة في مختلف دول العالم، وهكذا من ديرة لديرة، حتى وصلت إلى أن تكون من أملاك، والدي، والذي حررها بعد أن تزوجها، وأذكر الوالد - الله يرحمه - عندما كان يمازح والدتي، كان يقول لها (احمدي ربك، لقد اشتريتك بـ ١٠

جنيه ذهب، وأنقذتك من حياة البؤس، وإلا يمكن أنت الآن تخدمين بدون زواج)، والحمد لله أن ظاهرة العبودية انتهت للأبد، أنا الآن حرة مثلك، ودفعت فلوس، من أجل أشوفك، تصدق؟ أو لا تصدق؟ المهم، اجتمعنا بالحلال.

نهضت واقفا، والدهشة تسيطر على كياني، وتكاد تهزني من الداخل، وقلت لها:

- ماذا تعنين بالحلال؟

قالت وهي تسحب يدي طالبة مني العودة للجلوس:

- الحلال بين؟ وحتى تكون في الصورة، أنا معجبة بك كثيرًا، من يوم رأيتك قبل شهورٍ بالصدفة يوم صلاة العيد... كنت أُصَلِّي مع والدتي، عندما قالت لي (هذا ولد «فوزية» الخبَّازة، أفضل واحدة تصنع حلويات في المدينة، ومن يومها وأنا أتمناك، عرفت أنك متزوج، لكن ما يهمني زواجك، إن شاء الله عندك ألف حرمة، وجارية، مثل الخلفاء، والسلاطين، المهم، أتزوجك، وبالحلال... من أجل هذا طلبت من قريبي «عيسى» أن يعمل المستحيل؛ ليتيح لي فرصة الارتباط بك، بل إنني تنازلت له عن أشياء كثيرة من أجل هذا؛ لأنه كان مترددًا، وغير مقتنعٍ بارتباطي بإنسانٍ ليس في مستوى أسرتنا، وعائلتنا... والحمد لله تحقق الحلم، وأنا واثقة أنني أعجبتك أليس كذلك؟

أسقط في يدي، ماذا أقول؟ لقد أخرستني كلماتها، والدهشة مازالت مسيطرة على كياني، من يصدِّق أن فتاةً بهذا الجمال، والروعة تغامر بالحضور – وفي هذا الوقت من الليل البهيم – لتحتفل بزواجها، في بستان بعيدٍ عن الديرة، والناس، وتعرض نفسها ببساطة – لاسمح الله – للمتاعب؟ هل حقيقةٌ ما أسمع، وما أرى؟ خروج عن المألوف، وعن الأطوار، لقد خرجت هذه الفتاة الجميلة من الاحتشام، وكشفتْ بصراحةٍ عن رغبتها الغريبة، وتكون ليلة الدخلة بعيدًا عن الديرة، حتى تكون ذكراها مختلفة.

بماذا أجيبها يا ترى؟ هل أقول لها الحقيقة؟ أنني أيضًا أُعجبت بها منذ اللحظة الأولى؟ والشوفة الأولى؟ ومن رشفة الشاي الأولى؟ حتى كلماتها البسيطة فيها عمق، ووعي، لا توجد في كلمات زوجتي المثيرة «أمون»، هل أعترف لها بأنني أشتهيها؟ وأن تحقيق ذلك يتم بطرق مختلفة من بينها الزواج؟ وأن شروطها البسيطة، والغريبة في ليلة عقد القران، رحت أتساءل، وأفكر في ذلك، وإذا بها تقول:

— وين رحت فيه؟ خلّيك هنا، لا تروح عند زوجتك، ولاَّ ما أعجبتك؟! أو ما أستاهل؟

هنا خفق قلبي بشدة... وأنا أجيبها:

— معقولة...؟ ما أعجبتِني...؟ هذا كلام؟

قالت بعدما أكتسب وجهها حمرة:

– خلاص، الليلة الدخلة؟

فأطرقت برأسها، وراحت تلعب بخصلات شعر ضفيرتها الطويلة، وقالت بلسان عذب:

– طبعًا. الموضوع يتوقف عليك.

فلم يسعني إلا أن أحدق فيها بعينين مستغربتين فيهما علامات استفهام عديدة، وإذا بي أشير بأصبعي، وأنا أهز يدي موافق، وأردد:

– يلعن أبو الفقر!

قفزت من مكانها، وهي تصرخ:

– موافق... موافق... أموت فيك.

ثم راحت تقبلني بصورة هستيرية.

وبينما كانت «أنوس» تواصل تقبيلها لي، إذا بـ«عويس» يتنحنح قبل دخوله للغرفة، حاملاً سفرة الطعام الخوصية، ويقول:

– الثقل زين.

فارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ، عبرت عن فهمها لمغزى عبارة «عويس»، وقالت:

– «عويسوه»، أبشرك. «عثمان» وافق عليَّ.

قال «عويس»، وهو يضع السفرة على السجادة:

– من هو الذي لا يوافق، وهو يرى مثلك يا عمتى، جمال، ودلال، وعقل، ورزانة.

في هذه اللحظة دخل «مسمار» حاملاً صحنًا كبيرًا عليه مشوي الأرز بلحم التيوس، وضع الصحن على السفرة، والتفت مخاطبًا «عويس»:

– فِزّ، قوم، أحضر باقي المرق، والخبز في الفوطة، نسيته في صندوق العربة.

ثم قال:

– تحبون تغسلون أيديكم برّه، أو أجيب لكم الإبريق، والطشت هنا.

فأجابت «أنيسة»:

– نغسل برّه.

خرجنا جميعا، وهي تتأبط ساعدي بحنان، وإذا بها تأخذ الإبريق من يد «مسمار»، قائلةً في ابتسام:

– من هذه اللحظة، أنا المسئولة عن عمي، وحبيبي «عثمانوه»

قالتها بعذوبة، أول مرة في حياتي أسمع أحدهم ينطق اسمي بهذه العذوبة، والرقة، راحت تصب الماء على يدي، بعدها ناولتني الفوطة جففت يدي، وحملت الإبريق، رحُت أصُب الماء على يديها الرقيقتين، وأنا أشعر بسعادة

لا حدود لها، بعد غسيلنا لأيدينا، عدنا أدراجنا إلى الغرفة، ورائحة اللحم المشوي تثير فينا نوازع الجوع، بل إن النسيم اللطيف – والبارد نوعًا ما في تلك الليلة –ضاعف من شعورنا بالرغبة للأكل.

جلست مع «أنوس» حول السفرة، و«مسمار»، و«عويس» ذهبا لتناول طعامهم في «العريشة» المجاورة للغرفة... بدأنا نتناول طعامنا بشهية، كانت «أنوس» تناولني بعض قطع اللحم التي تختارها بعناية، وأحيانًا تضعها مباشرة في فمي، وسط نظراتها الودودة، الحركة خارج الغرفة صامتة، صمتًا لا يقطعه إلا حركة أوراق الأشجار، وسعف النخيل، وهي تداعبها بنسيمها الرقيق، من خلال النافذة المفتوحة أراها تعلو تهبط على أوراق الأشجار الأخرى، من ليمون، ونارنج، وخوخ، وعنب.

تنفرج الأفواه، تتحرك إلى أعلى، وأسفل، جميعنا في الغرفة، والعريشة نأكل بشهية، واستمتاع، كان الطعام لذيذًا قالت «أنوس»، وهي تحمل صحون الأكل خارجًا، ساعدتها بحمل السفرة، والبقية من أواني الطعام.

غسلنا أيدينا، وأفواهنا جميعًا، هذه المرة حمل أبريقَ الماء «مسمار»، عدنا جميعًا إلى الغرفة، اتجهت «أنوس» إلى بقشة قماشية كانت قد أحضرتها معها، أخرجت منها زجاجة عطر، عطَّرت أيدينا جميعًا، أعادت العطر إلى البقشة، ثم طلبت من «عويس» باسمة، أن يستعد مع «مسمار»؛ للشهادة على زواجها من «عثمان»، تطلع إليها «عويس»، وهو يقول:

– الأمري يا عمتي، لكن المهم، عندكم ورق نكتب فيه العقد؟

ابتسمت، وأشارت بسبابتها إلى البقشة:

- معقولة؟ أنسى الورق؟

قال «مسمار» قبل أن يخرج من الغرفة:

- عمّي «عثمان»، عمتي «أنيسة»، لا تنسوا أهمية الطهارة قبل العقد، لابد من الوضوء، الطهارة هامة، كذا سمعت الشيخ يحدِّث في المسجد.

فنظرت إليها مليًا، وخرجت للوضوء، ذهبت بعيدًا عن الغرفة بعدة خطوات، كان هناك غديرٌ من المياه الصافية.. رُحتُ أغتسل، وأتوضأ، وما أن انتهيت من الوضوء، إلاَّ، وهي واقفة خلفي، وظلُّها القمريُّ ينعكس على صفحة الماء، وتتموج صورة الظل، وتهتز كما هي حال مشاعري الداخلية التي تلعب بكياني كطفل يلعب بعصاه في بركة ماء، بدأت هي الأخرى تغتسل، وتتوضأ.

بعد أن انتهت من الوضوء، ونظرت إليَّ مليًا، ثم أخذت يدي، وقالت:

- لا أريد أن أضغط عليك، أو أجبرك على الزواج مني.

(هل أصارحها بالحقيقة؟... أني محظوظ؟.... وأن والدتي دعت لي من قلبها رحمها الله؟... فهاهي فتاة لا أجمل منها، ولا أحلى، تطلبني للزواج، بصورة مدهشة، ومثيرة، وقد لا يصدقها أحد، خصوصًا، ونحن نعيش

في مجتمع مغلق، ومحافظ، المرأة فيه لا حول لها، ولا قوة، فكيف أن تُقدِم مباشرةً على الخطبة لنفسها، كيف؟)، لحظةٌ مرَّت، وأنا أفكر في هذا الخاطر، عندما قالت:

- اللي واخذ قلبك إن شاء الله ما يتهنَّى به.

ثم ضغطت على يدي، ورحنا نسير إلى الغرفة، دخلت «أنيسة»، تبعتها، وكان في انتظارنا «عويس»، و«مسمار»، لحظاتٌ مرَّت، قال «عويس» بعدما جلسنا جميعًا:

- عمي «عثمان»، هل أنت موافق على الزواج من عمتي «أنيسة»؟

قلت باسمًا:

- وهل فيها شك؟ طبعًا. موافق.

قال:

- كم عندك فلوس؛ علشان الصباحية؟

أجبته:

- ما أدري؟ يمكن ثلاثة ريال فضة، وعندي خمسة ريال موجودين في مكان سري بالبستان.

قالت «أنيسة» في حياءٍ:

- ما يهم كم عنده، المهم، لو ريال واحد كصباحية، أنا شارية رجال، لا ريال.

قال «مسمار»، وهو يرفع يديه داعيًا لها بالتوفيق:
– الله يكثر أمثالك في الديرة.

خرجتُ من الغرفة، وذهبتُ إلى المكان الذي أخفيتُ فيه الخمسة ريالات، كنت قد تعودتُ أن أضع بعض الريالات في البستان من باب الاحتياط، والحمد لله جاء وقتهم، وحاجتهم في هذه الليلة المباركة، والمدهشة.

عندما عاد إلى الغرفة كان «عيسى» يغسل بيالات الشاي، صب الشاي، تناولتْ «أنيسة» البيالة، ثم مدتها إلي باسمةً، رُحنا جميعًا نحتسي الشاي بهدوءٍ، بعدها قام «عويس» بتسجيل ورقة الزواج المؤقتة، والتي تم توقيعهم عليها بعدما تسلمت «أنيسة» زوجتي الجديدة مهرها الخمسة ريالات فضة، وأعطيت ريالاً لـ«عويس»، وريالاً أخر لـ«مسمار».

بعد فترة قصيرة، استأذنا منَّا للنوم في البستان المجاور، بستان «حجي يعقوب»، وقال «عويس» بخبث:
– من أجل تأخذون راحتكم، ولا أحد يزعجكم.

وقال «مسمار» باسمًا:
– خُذ راحتك ترى، البركة مليتها ماء، بإمكانكما السباحة فيها.

شكرتهما، وتمنيت لهما أمسيةً طيبةً... في تلك اللحظة، وبعد ما تأكدت من عدم وجودهما في البستان، طلبت منها أن نستحم معًا في البركة، أجابت في سعادة:
– أنا رهن إشارتك.

خرجنا معًا، وسرنا يدًا بيدٍ، وأنا أحمل في يدي فانوسًا صغيرًا، وهي تحمل البقشة... عندما وصلنا إلى البركة – والتي كانت تقع بجوار العريشة المصنوعة من تجميعٍ لسعف النخيل الجاف، والمربوط بالحبال، والخُوص، والتي تشكل ساترًا جيدًا – بدأت أخلع ملابسي أولاً، واحتفظت بالإزار، بدأت هي تخلع ملابسها على استحياء... كان الماء باردًا، فنحن في نهاية الصيف، وبدأت نسائم الشتاء تجد طريقها للكون، مطلقة لنفسها العنان في السيطرة على الأجواء.

قالت، وهي تمدُّ ساقها الملفوفة والممتلئة صحة:

– الماء بارد.

أجبتها:

– حرارة مشاعرنا تدفيه.

ضحكتْ، و لم أتردد في رشِّها بالماء، صرخت في دلال، وقفزت داخل البركة، وتطاير رذاذ الماء بكميات كبيرة، مما بلل ملابسي، وملابسها... ضحكنا... احتضنتها... احتضنتني... قبلتها... قبلتني... شعرنا بأننا جسدًا واحدًا... مضى الوقت علينا سريعًا... خرجتُ من البِرْكة مترنحًا من نشوة اللقاء، وبرودة الماء، طلبتْ مني أن أسبقها إلى الغرفة، بعد تردد وافقت على طلبها، في الغرفة انتظرتها بإزار آخر كان موجودًا تحت أحد الدواشق.

كان الإزار مُقَلَّمًا بألوان حمراء، وسوداء، وزرقاء سماوية، كنت أحب هذا الإزار كونه هدية من والدتي، حملت أحد الدواشق، ووضعته بجانب الآخر، وغطيتهما بشرشف أبيض مطرَّز برسوم يدوية ملونةٍ... زهور، وعصافير، ووضعت وسادتين... الآن فرشة النوم جاهزة لاستقبال «أنوس»، و لم أتردد من تعطير الوسائد بدهن العود، فمن حسن حظي كانت بقايا الدهن موجودة في زجاجة صغيرة، داخل الخزانة الخشبية بالغرفة.

تمنيت لو كنت أعرف مسبقًا بنوعية مفاجأة «مسمار»؛ لكنت قد أعددت أشياء مهمة لمثل هذه اللقاءات، التي يتمناها المتزوجون، وغير المتزوجين، فبحكم ارتباطي بزوجتي «أُمون» التي علمتني الجنس، وطرق ممارسته منذ كنت طفلاً على مشارف الفتوة، وحتى بعدما أصبحت فتىً قريبًا من عالم الرجال، وهي التي تتحكم في العملية الجنسية، وممارستها، لم تترك لي يومًا الخيار، حتى في وضعية، وطريقة الممارسة، لكن – والحق يقال – كنت أستمتع معها دائمًا، فالغريزة عندما تنطلق تكون كالحصان الجامح، أو الثور الهائج، لابد من الجماع، والمضاجعة، لقد استمتعت مع زوجتي، ومنذ الصغر كما ذكرتُ.

هذه الليلة سوف أكون أنا صاحب المبادرة، وأنا الذي سوف أتحكم في دفَّة السفينة، أنا الليلة القائد، والقبطان، في سفينة الحب، والزواج مع «أنوس»، وهل تترجم معاني اسمها، فتكون «أنيسة» «أنيسة».

وأخيرًا، وأخيرًا قلتها من أعماقي عندما دخلت عروسي «أنوس» لقد كانت عروسة بالفعل، وهي ترتدي ثوب «النشل» الثمين، والذي يعتبر من أغلى، وأثمن الأثواب النسائية المصنوعة يدويًا، والذي تتفنن في خياطته، وصنعه نساء مدينته... كان لونه ليموني، مطرزًا بالترتر، وخيوط البريسم الذهبية، وكانت قد وضعت شيئًا من «الديرم» حمرة الشفاه الشعبية، والتقليدية السائدة في ذلك الوقت لدي نساء المجتمع، فبدت شفتاها الصغيرتان غامقتان، بصورة مثيرة، تحت الثوب كانت ترتدي «قميص» نوم من الحرير «الساتان» الناعم، وتضع في شعرها مجموعة من «المشموم»، على شكل وردة.

بقصدٍ أحسنت إغلاق باب الغرفة، واتجهت إلى أبواب النافذة المفتوحة، وأغلقتهما... ماذا أقول، لقد كانت فاتنةً بلباسها، وجمالها، وعندما احتضنتها شممت فيها رائحةً عطريةً زكيةً... خليط من العطور التقليدية العربية، وعطور باريس الشهيرة في ذلك الوقت، لم أتردد في حملها، والدوران بها أكثر من دورة على الفراش، وهي مطوقةٌ عنقي بيديها، وتقبلني في رقبتي، وتهمس في أذني بكلمات بسيطة، ومثيرة.

درنا، ودرنا حتى سقطنا على الفراش، كنا سكارى، وما نحن بسكارى، إلا بالمشاعر، والعواطف، والشهوة المتدفقة في عروقنا، كانت لحظاتٍ رائعة، ولا أروع منها، شريكتي فيها «أنوس» كانت ممتعةً جدًا.

حلَّقنا معًا في عالمٍ من اللذَّة الحلال، قد جربت اللذة، والمتعة مع زوجتي، وحتى مع بعض الفتيات، والسيدات الأخريات، لكن هذه التجربة كانت مختلفة، وسبحان الله، النساء – كما يقال – لكل واحدةٍ شكلٌ، وطعم يختلف من واحدة إلى أخرى، مثل الفواكه، جميعها طعمها حلو، ولذيذ، لكن حلاوة الشمام تختلف عن حلاوة التين، وحلاوة، وسكرية العنب، غير حلاوة، وسكرية الخوخ، كانت حلاوة «أنوس» حلاوة مختلفة، حلاوة تحسُّ بمذاقها العسليّ طوال اليوم، بل إلى الأبد، فهناك امرأة واحدة تستطيع أن تترك مثل هذا الأثر في الرجل، كيف يكتشفها؟ وأين يجدها؟ هذا متروكٌ أمرُه للقدر، وإرادة الله سبحانه، وتعالى.

فأنا أبدًا لم أسعَ لهذه الفتاة، بل وظروف مجتمعنا في الماضي لا تتيح أبدًا فرصة التعارف، واكتشاف الفتيات الأخريات إلا في ما نَدَر، وضمن الإطار المحلي، أو الأسري، حتى الزواج...كان الواحد يتزوج من خلال عيون والدته، أو شقيقته، وإذا كان محظوظًا نوعًا ما، فهو سَبَقَ وأن شاهدها أيام طفولتها، و لم تكن حتى الصور قد بدأت تنتشر في المجتمع، كان مجتمعنا أشبه بمدينتنا محاط بأسوار عالية، لا يمكن تجاوزها بدون المرور من خلال بواباتها التي يتناوب على حراستها رجالٌ شدادٌ.

مضى الوقت علينا سريعًا، تطارحنا الغرام كثيرًا، وتضاجعنا أكثر، كُنَّا شبابًا نتدفق حيوية، شعرتْ برجولتي، وشعرتُ بأنوثتها كما لم أشعر بأنوثة فتاةٍ

أخرى، لا قبل، ولا بعد، كانت «أنوس» مميزة، وحتى اليوم، وأنا في هذا السنّ أتذكرها، وأحسُ بلذةٍ... حرماني منها يبكيني، لقد كانت لها جاذبية خاصة، جاذبية مسيطرة منذ اللحظة الأولى، جاذبية تفتنُكَ، والنساء الجميلات في كل مكان، وزمان، وكما قلت سابقًا أنهن مثل الفواكه لكل نوعٍ طعمه، وحلاوته، وفتنتها لا تقاوم، ومثل «أنوس» يخضع لها الجميع... الزوج، والصديقة، وحتى الخادمة، والتاريخ يشهد – على مدى القرون – على وجود أمثالها؛ لذلك سيطر هذا النوع من النساء على الرجال، السلاطين، والخلفاء، والأباطرة، والقادة، والرائع في مثل هذا النوع الفاتن من النساء، هو عدم توقف فتنتها على مرحلة عمرية معينة، فهي فاتنةٌ في العشرين، والثلاثين، والأربعين، والخمسين... إلخ.

منذ الليلة الأولى سيطرت عليَ «أنوس» بصورة مدهشة، وعجيبة، على الرغم من سيطرة «أمينة»، لكنها ليست السيطرة التي أخضع لها، وأُفضِّلها، بل أكاد أسلمها القيود، والسياط كما هو الحال مع «أنيسة»، أما سيطرة «أمينة»، فهي سيطرة وقتية، أقاومها أحيانًا، وأهرب منها أحيانًا أخرى.

طوال ساعات ما قبل النوم تحدثت إليها بكل شيء، لقد كنت معها، واضحًا، وصريحًا، وكانت تعرف عني أيضًا الكثير، أين أسكن، وأنني أقوم بالسقاية على البيوت، وأرُشُّ الماء في الأسواق، وكنت يومًا ما خبازًا مع والدتي، كانت تعرف، بل إنها قالت:

- تعرف لماذا رغبت في الزواج منك؟من يوم شاهدتك في صلاة العيد، إن شعورًا داخليًا فَسِّرْه كيفا تشاء، جعلني أتصور أننا ننتمي لنفس المكان، وأننا خُلِقنا لبعض، ولنكون زوجين، بالحلال، لا عشيقين، يسرقان لحظات اللقاء، والحب،لقد شعرتُ بتماثلٍ بيننا دفعني-وبدون تردد - أن أطلب من «عويس» قريب والدي، ووليِّ أمري بعد وفاته، أن يُسَهِّل أمر زواجي منك، نظير تنازلي عن وقف كبير للوالد «يصرم» أكثر من ٢٠ طن من التمور الممتازة مع تسليمه جزءًا من مهري، لا تعلم كم من الوقت قضيته، وأنا أقنعه، وأشرح له، أنني مفتونة بك، وأنني لن أتزوج طوال عمري إذا لم أتزوجك، حتى إنه لم يتردد واعتبرني مسحورة، وربما قمت أنت بعمل «عملٍ» لي، جعلني أسيرة هذه الرغبة العجيبة، والتي قد لا يصدقها أحد، وبعد محاولات قررت، وبدون ترددٍ أن أحضر إليك هذه الليلة، وأن أتزوجك بالحلال... أريد أن أكون لك دائما، لا للحظةً، أو ساعةً، وإنما لكل الأيام، مع علمي بأنك متزوج، وسبق لي أن شاهدت زوجتك في أحد الأعراس، وبصراحةٍ شديدةٍ، ليس فيها عيب، امرأة كاملة، إلا أنني أريدك.

كانت تقول بذلك بتأثرٍ شديدٍ، وأناملها الرقيقة تعبث بشعيرات صدري المكشوف، ثم قالت:

- لقد تمسكت بفكرة الزواج منك عندما علمت أن أصل، والدك تركي، وهو نفس أصل والدتي، ألا ترى أن الدم يحِنُّ، ومصيره أن يلتقي يومًا ما، وأين في «الإحساء»، هذه الأرض الطيبة.

في صباح اليوم التالي جلسنا من النوم متأخرين، وطلبت من «مسمار» أن يذهب لبعض البساتين المجاورة، ويشتري دجاجًا، وبيضًا، وأعطيته ما تبقى لديَّ من نقودٍ، وكان ريال فضة، و ما فتىء «مسمار» يكرر التبريكات، والدعوات:

– أنت محظوظ .. لقد أرسل الله لك زوجة ثانية تجعلك طول وقتك تصلِّي، وتدعو الله، وتشكره على كرمه، ونعمته.

نفس التبريكات، والتهاني، والأدعية قالها «عويس»، وهو يستعد للعودة للديرة، مؤكدًا عودته مساءً، فلديه أعمال يجب إنجازها في سوق الخميس، و(يارب يلحق على السوق).

ولما خلُونا إلى نَفْسَينا ذهبنا سريعًا إلى بِركَة الماء... كان منظر البركة بالقرب من العريشة منظرًا ساحرًا، حيث أشعة الشمس تتسلل من بين سعف النخيل، وأوراق الأشجار، تاركةً بظلالها على سطح مياه البركة الباردة انعكاساتِ الظلالِ على جوانب البركةِ المبنيةِ من الأحجار، والمكسوة بالجص الأبيض المحروق، وحركة الظلال بفعل تحرك السعف، والأوراق تشكل حركةً بطيئةً، و موسيقى صامتةً، أشبه بالمناظر الطبيعية التي رسمها الرسامون المبدعون، لكن لماذا أنسى أنها من إبداع الخالق الذي وهبني هذه المرأة الجميلة، والتي تنتمي إلى جذور والدي «عصمت».

كان بياضها في الصباح واضحًا أكثر، فقلت لها، ونحن معًا نمرح في البركة الصغيرة:

– البارحة كنت قمرًا، أمَّا الآن، فأنت شمسٌ مشرقةٌ.

وكنت أطالعها بشهوة شديدة، قالت:

– بس، مطالعة الشمس باستمرارٍ يقولون إنها تحرق.

فأجبتها، وأنا أداعب ظهرها البضّ:

– شمسك مثل نار نبي الله إبراهيم، سوف تكون بمشيئة الله بردًا، وسلامًا عليَّ.

وإذا بها تُقَبِّلُني بشدةٍ، وكادت تعض شفتي... كان البستان في الصباح جميلاً، والماء صافيًا، والنخيل، والأشجار الأخرى بألوانها الخضراء، وبدرجاته المتفاوتة لونيًا على كل نوع من الأشجار، فهذه أوراق تميل إلى اللون الأصفر، وتلك إلى اللون الأخضر الغامق، وبعض الأوراق الجافة التي تحولت إلى اللون الأصفر، والبني، وبعض سعف النخيل اليابس، ولون التربة، والسماء الصافية، كل هذا جعل من البستان في ذلك الصباح جنةً من الطبيعة الخلابة، وها هي فاتنتي، وزوجتي «أنوس» تتمشى بدلالٍ بين الأشجار، وهي ترتدي فستانًا جديدًا سماوي اللونِ، فبدت فيه غادةً حسناء جاءت من السماء.

كنت أطالعها، وأنا أعدُّ الشاي في العريشة، و لم أرفع عيني عنها طوال سيرها، واستمتاعها بالمناظر المحيطة بها، وهي تجفف شعرها، بعد خروجها من البركة بمنشفة قطنية، ومع كل حركة من يديها الممتلئتين، كانت تتحرك أساورها الذهبية التي كانت تُحدِث شيئًا من الموسيقى الرتيبة، والمقبولة، وانعكاسات أشعة الشمس عليها بين لحظة، وأخرى تومض بنورٍ يكاد يخطف الأبصار كما خطفت صاحبتهم قلبي.

لقاء الحياة يتجسد في لغة الجسد عندما يعبر عن نفسه بتلقائية، وعفوية، عندما يلتصق بالآخر، ويهمس له بأشياءَ حميمة جدًا، لقد همس جسدينا لبعضهما بالكثير، وعبرنا همسًا، ولمسًا عن مشاعرنا، وأحاسيسنا، خاصةً، عندما تدخل العاملَين الجسدي، والبيولوجي، في العملية الجنسية، ورُحتُ أتساءل: (هل هناك علاقة ما بين وحدة اللون – لون البشرة، أي من نفس العرق – ونجاح اللقاء؟ مع أن هناك حالاتٌ كثيرةٌ جدًا، وناجحةٌ جدًا في زواج اللون الأسود باللون الأبيض؟).

كنت أجلس وحدي في العريشة، وزوجتي داخل الغرفة، تُمَشِّط شعرها، عندما أقبل «مسمار» حاملاً قفصًا مصنوعًا من عيدان سعف النخيل، وبداخله ثلاث دجاجات، وفي يده قفة.

– السلام عليكم... كل الذي طلبتَه أحضرتُه.

ووضع القفة أمامي، وبعدها تناول القفص من فوق رأسه، ووضعه جانبًا، والدجاجات في محاولات يائسة، وهنَّ يتقافزنَ داخل القفص على الرغم من الرباط المحكم في أرجلها... رُحتُ أضحك، وأنا أشاهد غترة «مسمار» التي تلوثت من «غائط» الدجاج، حتى إن هناك بقية آثار منه موجودة فوق أنفه. قلت له:

– أتعبناك كثيرًا يا «مسمار».

أجابني باسمًا:

– تعبك راحة يا عمي... تمنَّيت لو فيه وقت كاف، كنت أحضرت دجاجًا أكثر، نأكل اللي نأكله، والبقية نتركه في البستان.

رحت أتفحص ما في القفة من أشياء، وكان فيها بيض، وزبد، وحليب، خلال ذلك مدَّ لي بقية الريال، ثم قال:

– اسمح لي يا عمي سوف أذهب إلى الديرة، وأعود في المساء.

طلبت منه أن يذهب إلى البيت ويؤكد لزوجتي «أمينة» أنني سوف أتأخر، ولن أحضر إلاَّ يوم السبت لوجود عمل لديَّ، ولا تقلق. مدَّ لي بقية النقود، أعطيته مبلغًا منها طالبًا منه إحضار طحين، وسكر، وشاي، إضافةً إلى شراء لحم، وخضار للبيت.

باسمًا غادر «مسمار» العريشة، واتجه إلى جدول المياه المنساب من البركة، وراح يغسل وجهه وبعدها غترته.

كان ثغاء الأبقار يصل إليه ممتزجًا بزقزقة العصافير، وتغريد البلابل على أغصان الأشجار، وهو يراقب الذباب الكريه الذي يتطاير من مكان إلى مكان. راح يفكر: (ماذا يفعل الآن؟ لقد وقع الفأس في الرأس، ولابد من وجود تبريرٍ مقنع لزوجته «أمينة»، فسوف تكتشف اليوم، أو غدًا زواجه من «أنوس»، المدينة صغيرة، ولا شيء فيها لا يعرفه الآخرون، خصوصًا، وهو سوف يذهب للشيخ ليوثِّق عقد زواجه، ومن يضمن سِرِّية «مسمار» الذي يموت من أجل الريال؟ ومستعدٌ لبيع نفسه من أجله، كما قالت له «أنوس» بل، وحذرته منه)، قال ذلك لنفسه، وهو يراقب الذباب، وهو يحطُّ على القفة تارة، ويطير تارة أخرى.

خطواتٌ حلوةٌ، ودلالٌ، وجمالٌ أمامه الآن، ليستمتع قدر المستطاع بهذا المشهد الملائكي، وليترك للأقدار ما تقرره، فهو ملك اللحظة الآن، ولا يجب أن يشغل نفسه بأمور أخرى غير قطف اللحظات الحلوة، مع هذه الملكة الحلوة.

قالت، وهي تجلس بجواره، ورائحة العطر الباريسي «البلابل» تعبق في المكان:

— من زمان لم أشعر بأنني امرأة، إلاّ منذ لحظة زواجنا، تعرف يا »عثمانوه« أنني سعيدة جدًا، ومحظوظة جدًا جدًا، لكن يجب أن نكون واقعيين، وعقلانيين، ونفكر فيما يجب أن نفعله... أولاً لابد من إخبار زوجتك،

وبشجاعة، وبإمكانك شراءَ أساورَ ذهبًا لها، فالحريم يموتون في الذهب، ولا شك أنها سوف تتضايق، بل سوف تموت من الألم لمشاركتها فيك، لكن بإمكانك إقناعها، وبدون تردُّدٍ أنك تبحث عن ولدٍ يحمل اسمك، فالسنوات الثلاث التي مضت على زواجك معها لم تحقق لك حلمك، وبالتالي فكرت في الزوجة الثانية، وهذا من حقك الشرعي؟

قال لها وهو يحرك المروحة الخوصية ذات يمينا وشمالا:

– هل تتصورين أنها سوف تقتنع بهذا التبرير؟

وأضاف:

– إن «أمينة» نوعٌ خاصٌ من النساء، تحب السيطرة، وتحارب في مختلف الجبهات من أجل المحافظة عليَّ، لقد تسببت في تغيير مهنتي التي كانت تُدرُّ عليَّ ذهبًا؛ لسبب بسيط، هو خوفها على من النساء، والفتيات الباحثات عن الرجال للزواج منهم، هي تعلم يقينا أن مجتمعنا في هذه الديرة يسمح بتعدُّد الزوجات حسب الشريعة، لكنها تكره ذلك، بل إنها مرةً، وخلال مضاجعتنا قالت، بل أقسمت أنها سوف «تقطعه» إذا تزوجت عليها. إنني –وطوال السنوات الثلاث الماضية – أسير تحت سيطرتها، و لم أفكر أبدًا في الزواج، ولا حتى في الأولاد؛ لأنني مؤمن بأن الله هو وحده القادر على أن يهبني الولد، كما وهبني إياك ليلةَ أمس. تصدقين قبل قدومك الآن، كنت أفكر في نفس الموضوع، سبحان الله، هل هو توارد خواطر؟أم هو نوع من الاتصال العقلي بيني وبينك؟ كما حصل من اتصالٍ جسدي بيننا؟

راحت تربتُ على كتفه، وهي تقول:

- اطمئن... اترك الموضوع لي، وأنا أجد حلاً مناسبًا، أنت، ألا تعلم أنه لا يقدر على المرأة إلا المرأة؟

راح يستمع إلى كلماتها الواثقة، وقد أرهفت حواسه، واتسعت عيناه، وهو يطالعها، وهي تصب لها شايًا، ثم التصقت به، ورشفت رشفةً من الشاي، وسحبت رأسه، وأخذت فمه في فمها، ونقلت إليه الرشفة في حبٍ، ثم قالت:

- لا تشغل بالك يا حبيبي... دعنا الآن نفطر، شُربُ الشاي على الجوع يضُر.

وصمت، وهو يتذوق بقايا الشاي في فمه، الذي امتزج بِريقها العسلي، ثم قالت:

- كيف تحب البيض؟ عيون ولاَّ قرص؟ تحبه بالسكر ولاَّ بدون؟

قالت ذلك وهي تحمل القفة، وتتجه إلى موقد النار الذي احتل زاوية بالعريشة، كانت «أنوس» ماهرة في إعداد طعام الفطور، ومتقنة لعملها، فبسرعة، أعدت أقراصًا من البيض المحمر على «التاوة»، وقامت بتسخين الخبز الأحمر، والذي كان ملفوفًا داخل الفوطة، إضافةً إلى إعدادها لإبريقٍ من الحليب بالزعفران.

تناولنا فطورنا بشهية نحسد عليها، ورحنا نحتسي الحليب، ونتحدث في أمور شتى، (لكن أين سوف نسكن): كان هو الموضوع الهام، والذي أخذ منّا وقتًا طويلاً، لقد رفَضَتْ بشكلٍ قاطعٍ أن تسكن مع «أمينة» في بيت واحد، بل إنها طلبت مني أن أسكن معاً في بيتها، والذي يقع في وسط المدينة، ليس بعيدًا عن السوق، بقيت صامتًا في مكاني، بماذا أجيب؟ ماذا أقرر؟ هل أترك السكن مع «أمينة»؟ أم أسكن مع «أنيسة»؟ لم يعد هناك وقت، بعد غدٍ السبت، ولابد من العودة للديرة لابد أن أتخذ قرارًا فوريًا، وحاسمًا.

«أنيسة» من جهتها كانت تشرب الحليب، وهي تنتظر مني جوابًا مقنعًا، فهي لديها سكن خاص بها، لقد ورثته عن والدها، ولا يوجد معها في البيت إلاَّ خادمة، كانت من بقايا العبيد اللاتي تحررن، وحملن أسماء أسرهم، إنها لا تستطيع أبدًا أن تتركه من هذا اليوم، فجأة! قالت «أنيسة» بعدما اعتدلت في جلستها، ووضعت كوب الحليب جانبًا:

- عندي فكرة أتنازل عن الدكان اللي ورثته عن والدي، ويقع في شارع السوق لـ«أمينة»، وتسمح لك بالسكن عندي؟... أنا ما أطلب أن تطلقها - لا سمح الله - أو أن تقاطعها، أو تهجرها، فهي قبل كل شيءٍ زوجتك، واللي يعز عليك يعز عليَّ، لكن بصراحةٍ أنا أغير عليك، وأتمنى أن تقضي معي أطول وقت من اليوم... يوم السبت، واحنا رايحين للشيخ علشان نوثق ورقة زواجنا، أعمل تنازل لـ«أمينة»، ماذا تقول؟

وأضافت:

– على فكرة، ترى إيجار الدكان جيد، وحتى لو أرادت بيعه بجيب فلوس كثير، أنا يكفيني وجودك معي، والحمد لله أنا في خير كثير، وعندي كم «مغرس» في «البحيرية» و«الشراع»، غير الآلاف من الريالات التي تركها لي أبوي الله يرحمه، وهناك فكرةٌ أخرى: أنك تشتري بيتًا باسمك، وتقسمه قسمين: قسم لـ«أمينة»، وقسم لي، وبهذه الطريقة ما تستطيع «أمينة» تقول شيء لأنك عملت ما يريده الشرع من العدل.

– والله فكرة، والله فكرة، لكن من أين لي بقيمة مثل هذا البيت؟ لأنه من الضروري أن يكون كبيرًا، حتى أستطيع قسمته.

قالت:

– ولا يهمك، القيمة مهما كان مبلغها مقدورٌ عليها، أنا –ولله الحمد– غنيَّة، وهناك حلٌ آخر، ونستطيع توفير مبلغ كبير من قيمة الشراء: تشتري أرضًا فضاء، وتبني عليها البيت، ومؤقتًا، دبِّر نفسك، ليلةً عندي، وليلةً عند «أمينة»، كل الأمور الآن محلولة، ولا تحتاج لتعب التفكير، ولا تشغل بالك يا حبيبي.

قالتها وقامت لتحضير طعام الغداء، بعد برهة سمعتها تناديني:

– تعال أمسك معي الدجاجة.

ذهبت اليها، وأنا أفكر في اقتراحاتها المختلفة، لكن فكرة شراء البيت كانت هي الأفضل؛ لأنك، ومنذ البداية تقوم بتخطيطه، وتصميمه حسب رغبتك، وما تحتاجه من غرف، خصوصًا، وأسعار الأراضي كانت بقروشٍ، والبناء لا يكلف شيئًا.

رددتْ البسملة أكثر من مرة، وسورة الكوثر، وهي تكبر، والسكينة على رقبة الدجاجة التي أمسكتُ برجليها، وجناحيها بقوة... انتهت عملية الذبح بسرعة، وخفة شديدة، لاحظتُ أنها كانت خلال العملية كانت تضغط بأسنانها اللؤلئية، بحدةٍ على شفتها السفلى... مرَّ وقت إعداد طعام الغداء في جوٍ من المرح، والمتعة، فتعاونتُ معها في بعض الأشياء التي تركتها لي مثل سلق الدجاجة، ونزع ريشها، وتنظيف حبات الأرز «البلم»، وكان الأرز في ذلك الوقت يحتاج وقتًا لتنظيفه، فهو مليء بالأحجار الصغيرة، وأضافت لي مسئوليةً.

قالت دون أن ترفع رأسها، وهي تحرك البصل داخل القدر بعدما رشَّت عليه بعض التوابل:

- أحس أن الطبخ في البستان فيه نوعٌ من الحرية، والانطلاق، رحابة المكان، ومناظر الطبيعة تشعر الواحدة بأنها خارج نطاق أسوار الطين، وجو البيت المغلق... فكرة اللقاء هنا كانت فكرةً متميزة من «عويس»، لقد وضعتْ هذه الفكرة حدًا للجمود داخل البيت، والمدينة، لولا الخوف من لصوص النخيل، والبساتين لطلبت منك أن نسكن هنا على طول؟

قلت:

– الفكرة ممتازة، لكن تنفيذها صعب، فالبستان بعيد نوعًا ما عن الديرة، وعملي يتطلب تواجدي باستمرار هناك، وكما أشرتي اللصوص، والحرامية، اذا تركوك يومًا لن يتركوك اليوم التالي، لكن أنا معك أن وجودنا هنا أشعرنا بالانطلاق، والحرية والمتعة.

راحت الشمس ترسل أشعتها الحارة داخل العريشة، فبات الجلوس فيها صعبًا، قالت له:

– لننتقل إلى داخل الغرفة، فالهواء بات يهبُّ ساخنًا.

نهضنا سويًا، أطمئنّت على وضعية القدر، و حملته، ودفنته داخل كومة من الجمر، وقالت:

– لنتركه فترة؛ لينضج لحم الدجاج، والارز.

ثم أضافت:

– اطمئن سوف أعود إليه، أتوقع – أن شاء الله – تطلع طبخةً ممتازة.

يقول «عثمان» لنفسه، وهو يشاهد زوجته «أنيسة»، بقامتها المشوقة، والملفوفة، وبياضها الذي غطّى على بياضه، وبياض والدته: (سبحان الله، من كان يصدِّق أن ألتقي بهذه الزوجة التي تنتمي لجذور والدي، لو أنا كلَّفتُ منادين يجوبون الشوارع، والأسواق؛ لما عثروا عليها، وها

هي إرادة الله تجمعنا معًا، والأهم، أنها هي الداعية، وهي المفتونة، كم أنت محظوظ يا «عثمان»؟ فهذا الملاك الذي جاء من السماء، ليست غنية بالمال كما تقول، وإنما بالجمال، والدلال، والطيبة كطفلة غريرة، كم أنت محظوظ يا «عثمان»؟

كان يسير خلفها، وبودِّه لو حملها إلى الغرفة، لا يريدها أن تسير، حتى لو كانت المسافة لا تتعدى خطوات، لا يريدها أن تتعب، حمْلُها راحةٌ له... (لا يجب أن تضعف أمامها، يجب أن تكون لك شخصيتك القوية... لابد أن تشعرها برجولتك، وأنك لا تخضع لجمالٍ، وسيطرة زوجةٍ، مهما كان جمالها، ودلالها... لا يجب أن تكرر أخطاء الماضي عندما سيطرت عليك «أمينة»، لقد عشت في عالم «أمينة»، حيث كانت هي سيد البيت لا أنت، بل كانت أكثر من ذلك، فهي التي تأمر، وتطاع... ألم تتحكم في نوعية عملك؟ ألم تجعلك «مروي» تسقي بيوت الناس من قربك المائية بعدما كنت أشهر صانع للحلويات، والخبز في المدينة، حتى في اللقاءات الحميمة؟ أليست هي صاحبة المبادرات؟ ألم تغتصبْك طفلاً، وصبيًا، ومراهقًا؟ حتى، وأنت رجلٌ الآن؟ أليست التي تتحكم فيك؟ ألا تخجل على نفسك من ضعفك، واستسلامك الأهوج لامرأةٍ متسلطةٍ أنانيةٍ؟ انظر لهذا الملاك، وكيف كانت البارحة؟ كان خجلها منك، وترددها ضاعف من رغبتك، وشهوتك، وأجّجَ فيك نيرانًا خفيةً انطلقت

من عروقك، وتجسدت في ممارستك الجنس معها أكثر من مرة. لم تعطها ظهرك بعد العملية الروتينية، أو الطبخة بدون طعم، كما كنت تفعل دائمًا مع «أمينة»، صحيح كنت تشعر باللذة؟ لكنه شعورُ من كان جائعًا، وأكل أيَ نوعٍ من الأكل، أما البارحة فكانت العملية مختلفة، ومنذ اللحظات الأولى. لقد أشعرتْك بأنك الرجل، وأن الأمر مشتركٌ بينك، وبينها. ألم تستمتع معها كما لم تستمتع من قبل؟) كانت مشاعره تغلبه، وهو يتساءل في سعادة، وحبور، وهو يشعر بأنه كان ليلة أمس رجلاً كما يجب، لا رجلاً مغتصبًا.

أصبح ينظر لـ«أنيسة» نظرةً مختلفةً، نظرةٌ فيها شيءٌ من الاحترام، والتقدير، فهي امرأة لا تريد تجاوز حدود تكوينها الأنثوي، وتريد أن تعيش في ظل رجلٍ يُشعِرُها بأنوثتها، وضعفها، وحاجتها إليه، ومن خلاله سوف تحقق أحلامها، تطلعاتها، ورسالتها في الحياة كزوجة مطيعة، لقد كبرت في ذهنه، واستطاعت من ليلةٍ واحدةٍ أن تحتل مساحةً كبيرةً في قلبه، بل في كيانه كله.

هذه الزوجة تختلف كثيرًا عن زوجته الأولى، التي أفقدته الشعور بالاحترام، وكان لها الدور الأول في اتخاذ القرارات، أما هو فهو آخر من يعلم، فلا قرار لديه.

بدأت أشعر بعاطفة غريبة نحوها، ونحو «أمينة» أيضًا. تلاشى في نفسي ذلك الخضوع، والضعف تجاه «أمون»، الآن «أنيسة» باتت منافسة، وبشدة لها، خصوصًا، وهي تملك مزايا تختلف، استطاعت، وخلال يوم فقط أن تمسح سنواتٍ من الضعف، والخنوع، والاستسلام. اليوم لديَّ كل ما كنت أتمناه: زوجة أنا أول من أرتبط بها، وفيها شيء من الوالد.

خلال هذه الفترة التي كنت أتحدث فيها مع نفسي، كان الغداء قد صار جاهزًا، وها هي «أنوس» تعدُّ ترتيبات السفرة: كبسة دجاج، وسلطة كرَّات بالبصل، والليمون، حسب الإمكانات المتوفرة –كما قالت – وهي ترش بيدها السمن البري على الأرز.

– ماذا قررت. ؟ تشتري بيت جاهز. ؟ أم تبني بيت جديد. ؟

أجبتها:

– الموضوع بحاجة إلى تفكير، وشراء الأرض يحتاج لوقت، المهم، أننا الآن نفكر في تبرير قويٍّ لزواجي، لكي لا تخطو «أمينة» خطوةً سيئةً، أو تقدم على تصرفٍ أحمقٍ، أنا أعرفها جيدًا، إنسانة متهورة، وغيورة، وتعتبرني جزء من ممتلكاتها، وعلى الأخص أنها بدأت في امتلاكي من لحظة اغتصابي.

ضحكت «أنوس»، وهي تقول:

– بصراحة في هذا معك حق، أنا لا ألومها، لقد اكتشفت فيك خصائص لم تتوفر في زوجها، على الأقل ما فيك ريحة «بلاليع» الله يكرم النعمة، على فكرة، لا تغتر،لكن الواقع واقع، ومع هذا أنا مازلت عند وعدي، إذا أحبت أن تتنازل عنك بالدكان، أو حتى لو تطلب فلوس أنا جاهزة.

بعد فترة من الصمت قلت:

– نترك الموضوع الآن بهذه الصورة، سرِّيًا، والأيام سوف تساهم – ببركة الله – في الوصول لحلٍ معقولٍ، لا ضررَ فيه، ولا ضرار، لا لـ«أمينة»، ولا لك، إن شاء الله.

– اللي تشوفه ياحبيبي..!!

وبعد أن صمتت قليلاً، قالت من جديد:

– المهم بيتي من اليوم ملكك، ولا تتردد، والحمد لله، أنا زوجتك، و لا فيه مانع أنك تتردد على بيتي في أي وقت، إلى أن يكتب الله حلاً لهذه المشكلة: معرفة «أمينة» لزواجنا، لكن حاول أن تخبرها بطريقة حكيمة.

بعد الغداء، قمت صليت الظهر، ودعوت الله مخلصًا أن يسهّل أموري، وأن يوفّقني في زواجي الجديد، وأن يقع خبر زواجي على «أمينة» خبرًا غيرَ مؤثرٍ، ومحزنٍ، كانت تعدُّ الشاي بعدما وضعت فيه كمية من أوراق النعناع، عندما قالت، وهي تشير بسبابتها اليمنى:

– عندك عود، ولا نسمع عزفك، ولاَّ بس للحبيبة «أمينة»، والذين يعزون عليك، ولاَّ تحب تحرمنا من عزفك، وغناك؟

– حرام عليكِ. ما مضى على زواجنا يوم، وبدأت في التلميح، والمقارنة؟

قالت، وهي تناولني بيالة الشاي:

– لا مقارنة، ولا يحزنون، أنا «أنيسة» بنت الحسب، والنسب، أُقارَن بواحدة تغتصب الأطفال؟ وأسرتها متواضعة؟ وزوجها ميت في بلاعة؟ الله لا يبلانا، أفًّا عليك يا «عثمانوه»!

جفَلتُ من كلماتها، ورحت أنظر إليها في صمت، تملّكها الارتباك، انتفضت واقفةً، وقالت:

– أراك تغيرت... يعني هناك اعتبار كبير لـ«أمينة»!

وضعت بيالة الشاي جانبًا، وقلت:

– الوفاء حتى بين الحيوانات،مهم، أنت ما سمعتي عن وفاء الكلاب السلوقية لأصحابهم، «أمينة» مهما كانت، زوجتي، ولها فضلٌ عليَّ، وأنا شخصيًا، ما همَّني أصلُها، وفصلها بقدر ما همني سعادتي، واللحظات الحلوة التي قضيتها معها، وهذا لا يعني أنني لا أضع لك اعتبارًا، أو تقديرًا، الله أعلم بما في نفسي. صدقيني –يا «أنيسة»– كنت ناوي في أول ليلة أعزف، وأغني، لكن اللحظات الحلوة التي جمعتنا لم تترك لنا فرصةَ مداعبةِ العود... العود بحاجة إلى أن تعطيه وقتك بالكامل، إنه كالمرأة عندما تحتضنها؛ تحتضنه، تعزف عليه؛ تعزف عليها؛ حينئذ تنساب الأنغام، وتنساب اللذة في الجسد، ومساء أمس كان الوقت لك، وآمل أنني وفقت في العزف على جسدك، بدلاً من العزف على العود؟!

أما هي، وهي تستمع لكلماتي، فتردَّدَتْ، تساءلت ما إذا كانت قادرةً على الاعتراف، والبوح له بما حصل لها معه، وكيف كان مبدعًا في عزفه على جسدها، كما سمعت من «عيسى» قريبها عن قدراته، وإبداعه في عزفه على آلة العود... أحسَّت لحظتها بالسعادة، وهي تراه أمامها جالسًا يتابعها، ينظر إلى مفاتنها بشهوة... إنها تشعر أنه يريدها الآن، مثلما هي تريده أيضًا.

أخذتُ العود، احتضنته بحبٍ، ورحتُ أغني لـ«محمد فارس».

(يا من هواه اعزه، وأذلني

كيف السبيل إلى رضاك دلني)

وأغنية أخرى لـ«يحي عمر». كانت تستمع باستمتاعٍ كبيرٍ، وفجأةً! وقفت، وراحت تتمايل، وتتلوى، وتهز شعرها ذات اليمين، وذات الشمال، وفي وجهها المشرق إشراقة الطرب، والإعجاب. واصلتُ العزف، والغناء، وأنا أكثرُ نشوةً، وسعادةً، فغنيت أصواتًا خليجيةً تراثيةً، وخالدةً، سبق أن غناها العديد من المطربين المشهورين أمثال: «محمد بن فارس»، و«ضويحي بن وليد»، و«محمد زويد»... بَكَتْ تأثرًا عندما رددت أغنية «محمد بن فارس» «جزيل العطاء»، والتي تقول:

(يا جزيل العطا نسألك حسن الختام

فرج الهم واكشف مضيقه

وأجعل المصطفى شافعي يوم الزحام

يوم يفر الشقيق من شقيقه)

توقفتُ عن الغناء، ووضعتُ العود جانبًا، ورحت أحتضنها، وأمسح دموعها، وهي تقول في صوتٍ متهدجٍ:

– لقد سمعتُ الكثير عنك من «عيسى»، لكن لم أكن أتوقع أنَّ لديك هذه الموهبة الساحرة، كم أنا محظوظة بك، وبمواهبك؟!

ومضيت بها في رفقٍ نحو زاوية الغرفة، وأنا أقول:

– أنا المحظوظ أن هناك من يستطيع فهم الكلمات، وما توحي إليه، وتعنيه، ويتأثر بها، لا طربًا، ونشوةً، وإنما صدقًا، وتجاوبًا مع ما يقصده الشاعر، وما تهدف إليه معاني الكلمات. على الرغم من أنني لم أتعلم الكثير، إلا أن الأيام، وحضوري مجالس أناسٍ كبارٍ، ومتعلمين، ولهم تجاربهم الثرية، والمتميزة علمتني، وضاعفت من تجربتي، بل إنها ساعدتْ على تفهُّمي للحياة أكثر... صدقيني يا «أنوس»، أنا لست إنسانًا ماجنًا، أو «سرسري» بل أحب وَسَاعَةَ الصدر، لقد عانيت من حرمان الأب، ومنذ نعومة أظفاري، وفي فترة مرض والدتي بالسل، كنت بحاجةٍ إلى علاجها، ومتابعتها، وبالتالي كنتُ مضطرًا إلى العمل، والحصول على نقود؛ لذلك لم أتردد أن أعمل نديمًا لبعض عشاق السهر، ولم أضع لبعض الأعراف، والتقاليد اعتبارًا؛ لأنني لم أرتكب خطأً يضر الناس، وعملي محصورٌ بين أصدقاء، ومعارف، يشاركونني نفس الهدف، وهو البحث عن لحظات مرحٍ بريئةٍ في بيوتهم، أو بساتينهم، بدلاً من السفر للدول المجاورة، والحمد لله، الله وهبني مواهبَ عديدةً، ساهمتْ في إسعاد نفسي، وإسعادهم، وهذا يكفي، ليست الحياة عملاً، وفلوسًا فقط. الحياة عندي ساعةٌ لربك، وساعةٌ لقلبك.

نسيتُ «أمينة» بسرعةٍ، في خِضَمِّ انشغالي بزواجي، واللحظات الممتعة معها في البستان، لا أعرف ماذا تفعل الآن، وهل قام «مسمار» بشراء ما طلبته منه، وإبلاغها بانشغالي، وهل يا ترى اقتنعت بذلك، أم أنها فكرتْ في أسباب أخرى، علاقةٍ جديدةٍ، أو سهرةٍ مع الشباب «الزكرت»، ورحت أفكر: (ماذا لو استطاعت «أمينة» معرفة ما يدور في هذا البستان؟ ماذا لو استطاعت اكتشاف زواجي من «أنيسة»؟ وكيف يكون شعورها لو رأت جمالها، ورقتها، وشبابها؟).

شيءٌ من السعادة صاحبني، وأنا أتمدد بجوار «أنيسة»، خلال قيلولتنا الأولى في البستان، فلهذه القيلولة طعمٌ يختلف عن القيلولة التي تعودت عليها في بيت «أمينة»، ولست أدري حتى هذه اللحظة السرَّ وراء ذلك، هل تتغير لحظات الحياة بتغير المكان؟ وهل طباع الناس تتأثر بهذا المكان؟ وهل أجواء، وطبيعة البستان، وغابة النخيل، والأشجار المحيطة بغرفتنا الصغيرة وراء هذا الشعور؟ أم أنها مكتسبات طبيعية يفرضها الواقع المعيش؟ فتطغى مشاعرٌ جديدةٌ، تتوالد من المكان الجديد؟ أو هي نتيجةٌ طبيعيةٌ، وحتميةٌ لتغيير المكان؟ وهل كانت «أنيسة» لديها تصورٌ مسبقٌ بمثل هذه الأشياء؟ فمن أجل هذا طلبت أن تكون ليلة الدخلة في هذا المكان، الذي تعتبره الجنة الصغيرة كما قالت لي، ونحن نسبح في مرح؟

اعتدلتُ في فراشي، وأنا أشعر بنسيمٍ عليلٍ يلفحُ وجهي بنعومة، فتحت عيني في كسل، وإذا بي أشاهد «أنوس» بيدها «المَهَفَّة» الخوصيّة، تحركها فوق رأسي بحنانٍ، وحب... تفحصتُ الغرفة في ذاك العصر الواضح، جلوسها إلى جواري على الفراش، وفي يدها «المهفة»، أعادت لي صورة والدتي «فوزية» الحنون – رحمها الله – عندما كانت تفعل نفس الشيء في أيام الصيف الحارة، وقتَ نومي، ترى هل أعاد التاريخ نفسه من خلال «أنيسة»؟ «أمينة» لم تفعل ذلك مطلقًا، شكرتها في حنانٍ، وقلت:

– ألم تنامي، لماذا لم تعطي جسمَكِ مزيدًا من الراحة؟ تصرُّفكِ هذا ذكرني بوالدتي، كانت تفعل مثل هذا.

لم تعلق، فقط نظرت إليَّ بحبٍ، ثم قالتْ، وهي تُقَبّلني في خدِّي المبلل بالعرق، أنت تستأهل أكثر، والزوجة المُحبة هي امتدادٌ للأم، المحبة الصادقة تتواصل بطريقة غير مباشرة، مابين الأم، والزوجة، هذا الشيء من عند الله، لقد سمعت والدتي تقول ذلك، أن الزوجة الصالحة المباركة هي الأم، ولكن بصورة مصغرة، فحنانها على زوجها هو جزءٌ من حنان الأم، وهكذا بلهفةٍ احتضنتها شاكرًا، وممتنا.

قمت متكاسلاً، لكنها دفعتني بلطفٍ جهةَ الباب، وهي تقول:

– بسرعةٍ، استحم، وتوضأ، لا تفوتك صلاة العصر.

لحقت بي بالفوطة، كان الماء باردًا في البركة، هواء المزرعة مشبَّعٌ بالرطوبة، والحرارة، منظر العريشة الجميل يلبس ألوان البستان الخضراء، والبنية المحروقة، والأرض المبللة بالماء الذي يفيض أحيانًا من الجداول، أو ينساب من بين الأقمشة البالية التي يحجز بها المزارع المياه في هذه الجداول الترابية. عندما خرجت من البركة، وأنا أكثرُ حيويةً، ونشاطًا، كانت تقف في انتظاري حاملةً صحنًا معدنيًا، به قطعٌ من البطيخ «الحساوي». قلت، وأنا أتلذَّذُ بأكلها:

– ما شاء الله، البطيخة حلوة.

قالت باسمة:

– مثل صاحبها؟

وبلا مبالاة تابعتْ الأكل، وهي تتصور أنني سوف أعلّق على كلماتها، وحسبتْ أني اقتنعت تمامًا بما قالت من وصفٍ للبطيخة، وصاحبها. سِرْنا معًا، بينما رأسي يدور فيه شريطٌ من الصور، والأفكار المختلفة، تُجَسِّد لحظاتٍ ماضيةً، وحاضرةً... هذه هي والدتي، أكاد أراها باسمةً، سعيدةً لسعادتي، وها هي زوجتي «أمينة» مكتئبةٌ حزينةٌ، وهكذا هبَّتْ صورٌ مختلفةٌ في رأسي، جعلتني في حيرة من نفسي.

قالت:

- إنني متعبة جدًا... سوف أستريح ساعةً، وبعدها أقوم لإعداد العشاء.

وأضافت باسمةً:

- سوف تأكل «كيباب» لحم مشوي بالتركية.

نظرتُ إليها تأملتُها، وهي تدخل الغرفة، شعرتُ بأنها بذلت جهدًا كبيرًا طوال فترةِ قيلولتي، وهي تحرك المروحة الخوصيّة، وأنا أستمتع بالنوم...كم هي مُحِبَّة، ناكرةٌ لذاتها، ما أروعها من زوجةٍ طيبةٍ، وحنون.

ابتسمت في وجهها مزيحًا مشاعري الخاصة نحوها. فكرتُ في راحتها طلبتُ منها أن أحمل المروحة، وأقوم بما قامت به من دورٍ خلال نومي، أقسمت أن لا أفعل، بل إذا كان بإمكاني ذبح دجاجةٍ، وأعدادها لتقوم بتقطيعها بعد جلوسها من النوم، فلا مانع لديها من ذلك، أمَّا أن أجلس ماسكًا المروحة، وأحركها، فهذا شيءٌ لا تريده.

أجبتها بالموافقة. غيرت ملابسي. تجولتُ قليلاً في البستان، وهي عادة من العادات التي أمارسها عندما أزور البستان بين فترةٍ، وأخرى، عادة السير، والتجول بين نخيله، وأشجاره على الرغم من مساحته الصغيرة، إلا أنني كنت أشعر براحةٍ كبيرةٍ عندما أسير لوحدي، أو عندما يكون معي «مسمار»، أو بعض الأصحاب الآخرين. خلال سيري بين أشجار

التين، والخوخ، رحت أجمع بعض ثمارها الناضجة، وإذا بيد تخبط على كتفي، تطلَّعتُ محاولاً ألاَّ أُظهِر دهشتي، فإذا بـ«عيسى» يمسِّي عليَّ. تبادلنا السلام، والتحيات. قال:

– لقد أحضرت لكم :

ابتسمت في وجهه شاكرًا، بينما كان ينقل عينيه فيما أحمله من خوخ، وتين، مما جعلني أقدمها له، وسط كلماته المعجبة بنوعية الفاكهة، وكبر حجمها، قلت:

– الحمد الله البستان ريَّان، البركة في مياه «عين أم سبعة»، والتي تسقى المئات من البساتين، والحقول، والمزارع، وأنت تعرف الأرض عندما تخدمها؛ تخدمك، كذا تعلمتُ من الحجي «أبو منصور» جاري القديم، وحتى «أبي فهد»، والحجي «حسين»، جيراننا الآن في البستان، وغيرهم، تعلمت منهم أهمية إكرام الأرض، ولا تنسى، أنا لي شريك في هذا البستان، وهو الذي يعتني به، بفضل هذه العناية تحققت الغاية في إنتاج طيب، إن شاء الله تشوف خير البستان على سفرة العشاء.

سار «عيسى» إلى جانبي، وأنا أتجول في جوانب البستان، ورحنا نتحدث في أمور عديدة، عن سوق الخميس اليوم، وما فيه من جديد، قوافل الجمال، والمسافرين القادمين إلى الواحة، قوافلُ قادمةٌ، وقوافلُ مغادرةٌ محملةً بخيراتها المختلفة من أرز حساوي أحمر، وحنطة، وتمور، وتوابل،

ومشالح، وعبي، وصناعات حرفية تقليدية، وفي سوقها «الخميس» الشهير، والذي جعل من «الإحساء» اسمًا يتردد في مختلف مدن «الخليج»، وصارت القوافل تحسب مسافات الطرق بينها وبين «الإحساء» بكم بقى من الطريق ما بين الدوحة، و«الإحساء»، وكم بقى من الطريق بين «الإحساء»، و«الكويت»، أو «البصرة»، وفي واحة «الإحساء» يطيب للقوافل المسافرة إلى «الإمارات» المتصالحة الاستراحة بجوار «عين نجم»، أو «عين أم سبعة»؛ للتزود بالمياه، والطعام.

البعض يستريح ساعات، والبعض الآخر يستريح عدة أيامٍ، حتى قوافل العمرة، والحج العابرة الواحة متجهةً إلى الديار المقدسة تستريح، وتتسوق في ربوع هذه الواحة الخضراء.

راح «عيسى» يقُصُّ عليَّ مشاهداته اليوم في السوق، وأنه شاهد أحد الرحالة الأجانب، وهو يقوم برصد حركة، ونشاط السوق برفقة عسكرٍ من الأتراك، ناس تقول أنه إنجليزي، وناس تقول أنه دنمركي، لقد رأيته وجهًا لوجه، كان شابًا في عقده الثاني، وأكثر، أكلتْ الشمس وجهه؛ فتركت فيه بقعًا حمراء، وبنية. لقد وصل إلى «الإحساء» على ظهر جمل قادمًا من الرياض، وقابل الإمام «عبد الرحمن»، والد السلطان «عبد العزيز»، وسمعت من أحد مرافقيه أنه جاء في الأصل من «العراق» مرورًا بـ«الكويت»، وقابل الشيخ «مبارك»، وعبر الصحراء إلى «بريدة»، و«الزلفي».

وأضاف، والدهشة تشرق من عينيه:

– اسمه... اسمه كما قال لي المرافق «باركلي رونكيير»، لقد كان هذا الرحالة يعاني من الضعف، والوهن، حتى أن يده كانت تهتز، وهو يقوم برسم بعض الرسوم عن السوق.

كان «عيسى» يتحدث عن الرحالة «رونكيير» بدهشة، واستغراب، وأنا أستفسر منه، وأطلب المزيد عن هذا الشخص الغريب الذي يقطع آلاف الكيلوات ليتجول في هذه الأرض الطيبة، وأتساءل (يا ترى ما هي أهدافه وما هي رسالته التي دفعته لتحمل المشاق، والمتاعب، وخطر الموت من هجوم قطاع الطرق، ولصوص القوافل، وما هي المكتسبات التي سوف يكتسبها من رحلته الطويلة التي دفعته إلى ذلك؟ لماذا لا أذهب أنا إلى «تركيا»؛ للبحث عن والدي، أو أبناء عمومتي؟ إنني هنا أخجل كثيرًا عندما يسألني أحد عن أعمامي، وأهل والدي، ولا أعرف بماذا أجيبهم؟ هل أقول إنني ولدتُ هنا، ولا أعرف أبدًا إذا كان هناك إخوة لأبي؟ أم أنه مقطوعٌ من شجرة كما أصبحت أنا الآن؛ نتيجة لضعف جدي، وعدم مقاومته الوساطات، وبالتالي ضحَّى بأمي الفتاة الصغيرة التي لا حول لها، ولا قوة، ومنحها لهذا المسلم التركي الذي هو أبي. كم مرةٍ ترددتُ على مكاتب «الإدارة التركية» مستفسرًا عن مصير والدي، وأرجع خائبًا، وكم مرةٍ طلبت من والدتي أن تعطيني معلوماتٍ مفيدةً عن مدينته، أو قريته، أو حتى اسمه الكامل، وكل ما استطعت معرفته من والدتي هو أنه من لواء «الإسكندرونه»، وأن أصله عربي.

كنت أقول ذلك لنفسي بمرارةٍ، وألمٍ شديدين، وأنا أغبط الرحالة الغريب الذي جاء عابرًا هذه القارة باحثًا عن أشياءَ قد لا يكون لها فائدة بالنسبة له، كما لو عبرتها أنا إلى «تركيا» بحثًا عن والدي، وأعمامي.لكن من أين لي قدرة، وشجاعة، وتحمل هذا الرحالة الغريب العجيب الذي قطع هذه المسافات، وطوال شهور، وربما سنوات، هل يأت يوم، وأفعلها مثله، وأغادر على جمل، أو أي وسيلةٍ أخرى؛ لأ تعرف على أعمامي، وأولادهم؟

حلم يراودني كل يومٍ، بل كل ليلةٍ، فهل يتحقق كما تحقق حلم هذا الرحالة الشاب القادم من بلاد حورية البحر؟ فشاهد جزيرة العرب!

وخزني «عيسى» بإصبعه، وهو يقول:

— وين رحت؟ معقولة تسافر، والأحبَّة معك؟ تريدني أفتن عليك؟ أقول لـ«أنوس» بالك ما هو هنا؟ رايح طاير للديرة؟

وضحكتُ، فابتسم ابتسامةً باهتةً لا لون لها، وقال:

— اطمئن. أنا جايب لكم حلويات من السوق. حلوى «بغيطة»، وزلابية، وزجاجة شراب «نامليت».

تحادثنا مليًا، ونحن جالسان بجانب العريشة، وعلى دِكَّةٍ بجانب مجرى قناة الماء التي يجري فيها ماء البركة. بعد صلاة المغرب جماعة أنا، و«عثمان»،

أقبلت علينا زوجتي «أنيسة» حاملةً إبريق الشاي، بعد السلام، طلبت منّا الانتقال إلى الجلسة بجوار الغرفة، حيث نور الأتريك الذي أشعلته يضيء المكان هناك بصورة أفضل.

ناولها قريبها «عيسى» القفة التي كانت تحتوي على الحلويات التي اشتراها من سوق الخميس، شكرته باحترامٍ، وقالت:

– في الديرة مثل يقول: (يا ناقل الماء إلى هجر، مالك ثواب، ولا أجر).

ثم أكملت:

– جايب لنا حلويات لبيت الحلويات؟!

قال ضاحكًا:

– هذا لما تكونا في البيت، أما هنا في البستان، فالأمر مختلف، إضافةً إلى أنني احترت ماذا أحضر معي؟ فخطر على بالي الزلابية، والبغيطة، وهي من أشهر حلويات الديرة، طبعًا. لا يمكن منافسة حلويات «عثمانوه»، ولا حلوياتك، ومع هذا، فرصة تكتشفان فيها نوعية حلويات السوق الفاخرة، والحق يقال... إنكما سوف تكسبان ذهبًا لو يقوم «عثمانوه» بعمل حلويات والدته من جديد، ومن ثم يبيعها في السوق، أنتما لم تشاهدا الإقبال الكبير على بائع الحلويات... أنا واثق لو بدأ «عثمان» هذا المشروع من جديد لواثقٌ تمامًا من نجاحه، وأنا شخصيًا مستعد

لمشاركته في هذا المشروع الممتاز، وأنتما تعرفان المثل الذي يقول: (أعطي القوس باريها)، فكيف الحال بالنسبة لـ«عثمان»، وهو وارث عن والدته صناعة الحلويات التركية، والشامية بصورة فريدة؟

قاطعته «أنيسة» قائلة:

– لا تنسى أنا أيضًا وارثة من والدتي أسرار عمل الحلويات.

وإذا بـ«عيسى» يقول:

– أعرف ذلك، والمثل يقول: (وافق شن طبقة)، المهم، أنكما محظوظي،ن وفرصة كبيرة لكما للقيام بعمل مفيد لمجتمع الديرة، كما كانت تفعل والدة «عثمان»رحمها الله، فمقامه ليس رشُّ الماء في الطرقات، أو الأسواق، أو توصيل المياه للبيوت، هذا عملٌ يقوم به عماله، أو صبيانه، خصوصًا، وهو الآن بخير، وكما سمعت لقد ورث عن والدته –رحمها الله – مالاً كثيرًا.

فقالت «أنيسة» سعيدة :

– هذا كلام معقول، وفكرةٌ، عودةُ «عثمان» لمشروع والدته القديم، اعتبره مشروعي الآن، ورقبتي سدَّادَة، من ريال لألف، بس يوافق «عثمان»، وأنا مستعدة لمشاركته، أو حتى بدون مشاركة.

فقلت:

- حسبكما لا تندفعا وراء فكرةٍ سبق، وأن ألغتها زوجتي «أمينة»، بل إنها اشترطت عدم عودتي لعمل الحلويات، أو بناء تنورٍ جديدٍ في بيتها خوفًا من أن تتأثرَ بما تأثرت به والدتي من دخانٍ، وتصاب بمرض السل، لا سمح الله!

فقال «عيسى»:

- ومن طلب منك أن تبني التنور في بيت «أمينة»؟ عند «أنوس» حوش مهجور بجوار البرج الجنوبي لسور المدينة، نبني فيه التنور، وأنت تشرف فقط على الخبّاز في التنور، والحلويات تعملها في البيت، أنت، و«أنيسة» مع كم بنت.

فأدار «عيسى» رأسه إليها كالمستفسر، وقد بات يشعر بموافقةٍ سريعةٍ منها. كما توقع إذا بـ«أنيسة» تقول:

- أنا موافقة، والحوش مناسب جدًا لنبني فيه تنورًا، والبنات لا تحملون همهنَّ، من يوم السبت، أنا أعمل اتصالاتي مع معارفي من النسوة، وإن شاء الله، نوفق في العثور على فتيات، باستطاعتهن معرفة عمل الحلويات.

فجأة! تذكرت العاملات السابقات لدي والدتي... «مريم»، و«عفيفة»، و«فطوم»؛ فقلت:

– بالمناسبة أنا أعرف بيتَ واحدة شاطرة، كانت تعمل معنا قبل سنوات، إذا كانت موجودة أذكر أنها كانت تسكن شرق المدينة.. يوم السبت، أرسلُ «مسمار» للبحث عنها، ومن خلالها؛ نعرف الأخريات.

فهز «عيسى» رأسه موافقًا، ونظر إليَّ قائلاً:

– خلاص، كل شيء الآن جاهز لبدء العمل في الحلويات من جديد، اتفقنا؟

فكان جوابي، وزوجتي:

– اتفقنا.

كيف يطيب الوقت بدون إنسانة واعيةٍ، ولطيفةٍ مثل «أنيسة»... حالما انتهينا من احتساء الشاي، سارعت بتحضير لحم الدجاج الذي قطعته شرائح صغيرةً جدًا، ثم قامت بهرسه، وضربه بيد الهاون، بعدما غطتها بقطعة من القماش... تحول اللحم إلى عجينة قامت بعدها بتتبيلها بالبهارات المتوفرة في العريشة، إضافةً إلى كمية من البصل، والثوم، وقليلٍ من عصير الليمون، والملح... وضعتْ ذلك في «طاسةٍ» معدنيةٍ، وراحت تجهز الموقد بإشعال النار في بقايا الحطب استعدادًا لعمل الخبز. كانت عجينة الخبز قد أعدتها مبكرًا قبل أن تذهب؛ لتستريح حتى تعطي العجين مزيدًا من التخمُّر.

كنا نتابع عملها بإعجاب. قال «عيسى»:

– ألم أقل لك أكثر من مرة إنك محظوظ، زوجتك لبلب، ما شاء الله، الحب يعمل المعجزات. إنها تحبك يا «عثمان».

قالها بنبرة الواثق، والعليم بسريرة «أنيسة»، والتي عبر له يومًا عن رغبته في الزواج منها، لولا كونها أخته من الرضاع. قلتُ له:

– لا شكَّ في ذلك، وأنا صدقني أحببتُها من ليلة «شوفة» السنة. ونحن في الحياة أسرى نواميسها، وما يكتبه الله لنا فيها من خير، أو شر، واللهم لك الحمد، يبدو أن الخير قادمٌ على يد قريبتك «أنيسة». إنني متفاءلٌ جدًا في مستقبل الأيام.

كانت أضواء الأتريك تتلألأ على أغصان سعف النخيل، وأغصان الأشجار، وتتحرك مع كل هبَّة نسيم في إيقاعات صامتة، لا يقطع صمتها إلا حركة الأغصان، وأوراق الأشجار، والسعف، أو صوت من بعيد لنباح كلبٍ جائع. بدت على وجوهنا كلنا علامات من السعادة، والبهجة أنا، و«عيسى»، و«أنيسة». جلسنا نتابع ما تقوم به «أنيسة» من شوي الكباب بالطريقة التركية، وعلى «التاوة» الصغيرة تقوم بعمل الخبز، والذي كان طحينه خليطًا من الطحين الأبيض، والأحمر «البر» رائحة اللحم المشوي «الكباب»، ورائحة الخبز الطازج تثير في نفوسنا الشهية، وكنا نتصور أن أسياخ كباب دجاجة كاملة لن تكفينا من فرط إحساسنا بالجوع، ومع تضاعف شهيتنا التي باتت مفتوحةً جدًا.

انتهت «أنيسة» من إعداد الكباب على الطريقة التركية مع الخبز، واشتركنا نحن الثلاثة في تجهيز سفرة الطعام، وكانت سفرةً طيبةً، احتوت على الكباب، وشوربة بصل بالدجاج، وسلطة بصل أخضر بالليمون، وسلة من فاكهة البستان، والتي سبق لي قطفها، ولما فرغنا من تناول الطعام اللذيذ، شربنا القهوة، ورحنا نتبادل الأحاديث عن آخر أخبار الديرة، وامتلأ البستان بضحكاتنا، ورحت أروي لهم بعض الحكايات الضاحكة التي كنت أرددها خلال سهراتي مع أصحابي، أو التي سمعتها من والدتي، ذكرت حكايةً تركيةً باسمةً رواها والدي يومًا لوالدتي.

تقول الحكاية: إن أحد الفلاحين الأتراك بعد حفلة العرس التي تزوج بها عروسه، وضعها في عربته، وأنطلق بها إلى بيته في مزرعته، والتي تقع بعيدًا عن موقع حفل العرس، وفي الطريق توقف الحصان الذي يجر العربة عن السير، ورفض أن يتابع سيره إلا بعد عدة محاولات، وعندما عاود السير قال العريس للحصان: (هذه واحدة)، وبعد دقائق توقف الحصان مرةً أخرى، فقال له: (وهذه الثانية)، وفي المرة الثالثة قال: (آه، وهذه الثالثة)، ثم تناول بندقيته، وأطلق عليه النار، فأرداه قتيلاً، فقالت له العروس، وهي تبكي: (يا لقلبك يا مصطفى ما أقساه!) فحدق بها العريس، ثم قال: (هذه واحدة).

أما «أنيسة»، فقالت طرفةً نقلاً عن والدها: (مرَّ رجلٌ بقومٍ قد اجتمعوا على رجلٍ يضربونه، فقال لأحد الضاربين: ما حال هذا الرجل؟ قال: والله ما أدري حاله، لكني رأيتهم يضربونه؛ فضربته معهم طلبًا للثواب من الله عز، وجل). أما «عيسى»، فذكر لنا بحزن ما كانت تتعرض له القوافل التجارية المختلفة القادمة للواحة، والمغادرة منها من نهبٍ، وسلبٍ، بل وحتى قتل، ويذكر أنه، وقبل سنوات، وهو فتىً صغيرٌ كان يرافق، والده قادمين من «العقير» حينما تعرضَت قافلتهم لهجوم كبير من قطاع الطرق، ولصوص القوافل، حيث هاجم اللصوص القافلة، وأعملوا فيها سلبًا، ونهبًا، وتقتيلاً، والنتيجة عشرات الضحايا من حراسها من العسكر، والجمالين، وحتى الجمال التي تناثرت حول جثثها بقايا أحمالها، وشدَّاداتها المتمزقة.

ويضيف «عثمان» لقد تعب العسكر في مواجهة البدو، واللصوص، وقطاع الطرق طوال العقود الماضية، ولم ينفع «سجن العبيد» المخيف من نشر الخوف، والرهبة في نفوس هؤلاء، وأولئك، وهناك من يؤكد أن هؤلاء ليسوا لصوصًا، ولا قطاع طرقٍ، وإنما هم رجال من المقاومة المحلية، حضرٌ، وبدوٌ يعملون في سريةٍ معًا، بهدف إزعاج الأتراك، وبهذه الطريقة سوف يُقضَى على التواجد التركي في المنطقة، وأنا مع هذا الرأي لأن الكثير من أبناء المنطقة يعيشون في ضيق من التواجد التركي السلبي

الذي لم يخدم المنطقة أبدًا، بل إنه لم يسعَ في تطويرها، وتنميتها، ولقد ساد في مجتمع الواحة بل المنطقة بأسرها كراهية لوجود العسكر، معتبرين وجودهم هنا نوعًا من «الاغتصاب» المرفوض، والذي يستحق المقاومة المشروعة على اختلاف أشكالها، وأنواعها، وراح «عيسى» يذكر أنواعًا مختلفةً من هذه المقاومة الوطنية الرائعة التي شارك فيها أبناء الواحة، اللهم بعض المنتفعين، والمستفيدين من وجودهم، أو لكونهم عملاءَ غير مباشرين لهم، ومن هنا كان إيمان الناس واضحًا بأنها تقاتل الأجانب مهما كانوا أصدقاء حينما يحاولون اغتصاب، واستغلال خيرات، وثروات الواحة.

في الواقع كانت سهرة طيبة على الرغم من حكايات «عيسى» المختلفة عن ما كان يتعرض له الناس فيما مضى من عدم استقرارٍ أمنيٍّ؛ بسبب المواجهات بين البدو، والعسكر من جهة، وبين قوافل المسافرين، واللصوص، وقطاع الطرق من جهة أخرى، ومع هذا كانت بعض الحكايات الطريفة التي ذكرتها زوجتي «أنوس» نقلاً عن والدتها مصدرَ متعةٍ، وسعادةٍ لنا.

استأذن «عيسى» للذهاب للنوم في العريشة، وبعدها ذهبت مع زوجتي للنوم داخل الغرفة، ونعمنا بنوم هادئٍ مشبع بالمشاعر اللذيذة التي تفجرت بين حنايانا، فكلانا يعيش لحظاتِ سعادةٍ كبرى بمناسبة الزواج.

في صباح اليوم التالي، قررنا مغادرة البستان، والعودة للمدينة بصحبة «عيسى»... طلبت مني زوجتي «أنوس» أن أتردد عليها في بيتها حتى نجد حلاً لإقامتي معها بصورة دائمة، والبدء في تنفيذ فكرة السكن المشترك في حالة موافقة «أمينة» على ذلك. واجهتني مشكلة كبيرة مع «أمينة» عندما عدتُ لبيتها، لستُ أدري كيف اكتشفت أنني أصبحت شخصًا آخر؟ ليس «عثمان» الذي عرفته فتىً صغيرًا، وشابًا، فطوال ليلة السبت، وهي تقسم، وتؤكد أنني كنت مع نساءٍ طوال اليومين الماضيين. بعد تعب وإرهاقٍ وشجارٍ استغرق وقتًا طويلاً، انفجرتُ فيها، وطلبتُ منها أن تحطم القيود التي وضعتها في عنقي، فانا حرٌّ، ويجب أن أعيش حسب ما أرغب، وأهوى بدون، وصاية، أو سيطرة، بل رحت أتحدث عن الاغلال، وأنني أحبها لكن لا أحب الأغلال، وإذا كانت تريد المحافظة عليَّ؛ فلتتركني حرًا طليقًا بدون وصايةٍ، بعيدًا عن الأغلال، والقيود، مهما كان نوعها.

حقيقةً، مرتْ الأيام علينا صعبةً في بيت «أمينة»، وسهلةً، يسيرةً، سعيدةً في بيت «أنيسة»، والتي كنت أترددُ عليها بين فترةٍ، وأخرى، وأنام في بيتها بعض أيام الأسبوع، ورحنا نخطِّط معًا نحن الثلاثة: أنا، و«عيسى»، وزوجتي لمشروعنا مخبز «التنور» الجديد، ومرت الأيام، والشهور، وإذا بفرحة عمري... الحلم الذي كان يراود والدتي – رحمها الله – و«أنيسة»، أن تكون لي ذرية، ولد، بنت، لا يهم، المهم أن يكون لنا طفلاً، أو طفلةً،

لم تسعنا الفرحة، وكان شعورنا هو شعور السعادة، والغبطة، والفرح، ولست أدري لماذا أنا فرحت بشكل خاص؟ هل لأنني رجلٌ، ووجود طفل لديَّ يؤكد لـ«أمينة» أنني لا أحمل عيبًا، وأنني قادرٌ على إنجاب أطفالٍ من زوجةٍ أخرى؟ المهم أنني فرحت كثيرًا، وفرحتْ «أنيسة»، ربما لشعورها، واطمئنانها بأنني رجلٌ كاملٌ، ها هو استطاع بعد زواجها منه أن يصبح أبا، فرُحْنا نخطط ماذا سوف نفعل للمولود، أو المولودة، وكيف تكون احتفالية الأسبوع الأول، نسيت أن أخبرك أن «أمينة» عرفت أخيرًا بزواجي من «أنيسة»، بكتْ كثيرًا، لكنَّها اقتنعت أخيرًا بأن السبب وراء زواجي هو الرغبة في مولود يحمل اسمي، وخلال حمل «أنيسة» طلبتْ مني الطلاق، حاولت عبثًا أن أُثنيها عن رغبتها، لكنها أصرَّتْ، وكان الانفصال، وبعد شهور، قد لا تُصدق تزوجتْ من «مسمار»!

ابتسمتْ لنا الأيام، فصرنا أنا، و«أنيسة» أكثر سعادةً، وبدأنا مع «عثمان» في ترميم الحوش المهجور، وبناء غرفةٍ خاصة بالتنور، والاستعداد لولادة «أنيسة»، كانت هناك أكثر من خادمة تساعدها في أعمال البيت، بل إنها لم تكن تفعل شيئًا مطلقًا، فلقد كانت «أنيسة» واعية، وتعرف من خلال صديقاتها الحوامل أهمية الرعاية، والراحة للمرأة الحامل، ولم يمنع الحذر ما كتبه القدر، وراح «عثمان» في موجة بكاءٍ شديدةٍ، وهو يتذكر لحظات ولادة زوجته «أنيسة» التي تعسرت كثيرًا؛ فمات جنينها خلال الولادة، وماتت هي بعد ذلك بساعات، عندما نزفت كثيرًا نتيجةً لعدم وجود

القابلات المتخصصات، أو حتى خدماتٍ طبيةٍ، حيث لم تكن موجودةً في ذلك الوقت في مدينته، رغم أن الداية التي قامت بالإشراف على عملية الولادة من ذوات الخبرة، والتجربة في المدينة، لكن هي إرادة الله.

بموت «أنيسة»، فقدتُ كل شيءٍ: الأحلام، والمشاريع، والحب، والوناسة، والمتعة، التي لن أجدها أبدًا، وحتى السكن في بيتها، فلقد تغيَّر «عيسى» كثيرًا، بل إنه قام – ومن خلال ثقة «أنيسة» فيه – باستغلال توكيلها له، وتنازلها عن أحد أملاكها له من أجل موافقته على زواجها مني، استغلَّ ذلك في بيع أملاكها لنفسه، و لم يبقَ إلاَّ الدكان الذي بـ«القيصرية»، وكان قد سبق أن أجَّره لأحد التجار لفترة طويلة، ولا أستطيع أن أذكر لك بالتفاصيل كيف كانت حالتي عندما فقدت طفلي، وبعده زوجتي الحبيبة «أنيسة»... كانت أيامًا مأساويةً، وصعبةً عشتها، ومصيبة لا يمكن تصورها، لكن هكذا هي الحياة تعطيك الكثير، وتأخذ منك الكثير الكثير.

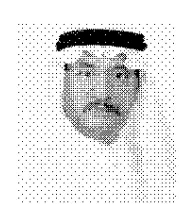
لقد تعبتُ بعدها، وأصبتُ بمرضٍ أثَّر على صحتي، ولولا عملي في سقاية البيوت، والذي كان هو تسليتي في وحدتي، ومعاناتي، خصوصًا، وأنني كرهت أشياء كثيرة، ولولا حضوري بعض الجلسات الخاصة مع المعارف، أو من يدعوني للسهر معه، فربما أصبت بالجنون، وحتى الأمراض في وقت كان يسود في المدينة إشاعات عن وجود سحرة، ومشعوذين، بل إن هناك من همس في أذني في أحد الأيام بأن عملاً قد عُمِلَ لي، مما تسبب في وفاة زوجتي، وطفلي... تعوذت من الشيطان الرجيم، وأنا أسمع هذه المعلومة

الغريبة، والتي لم أصدقها؛ كوني مؤمنًا كثيرًا بالله، وبالقدر خيره، وشره، وأن ما يحدث لنا في هذه الحياة هو شيء مكتوب، ومع هذا رحتُ أتساءل مع نفسي عن موقعي في هذه الحياة، ولماذا أصبحت مقطوعًا من شجرة؟ فأخوالي لا يريدوني، بل ولا يتشرفون بي عندما ألتقي بهم مصادفةً في الطريق، أو السوق، ورغم مواهبي، وقدراتي إلا أنني أشعر مع كل يوم بأنني إنسان مهزوم، ضعيف، سبق اغتصابه عندما كان فتىً، واغتُصِبَتْ منه أملاكُ زوجته عندما كاد يكون الوريث الحزين.

ذكر لي ذلك، وانتابته رغبةٌ في البكاء الممزوج بالضحك الهستيري، والمأساة: أنك تشاهد «عثمان» الموهوب، والذي تختفي وسامته، وخصلات شعره الناعمة خلف غترةٍ ممزقة، وهو يتجول في الأسواق، لا لبيع، أو توصيل، أو رش المياه إنما كرجلٍ فقد عقله، وهو يردد أغنيةً شعبيةً تراثيةً: (حمام جانا مسير، ولا سلم عليه).

تذكر ذلك «عبد العزيز»، وهو يشاهد عبر التلفزيون مسلسل الموت اليومي في العراق، بعد اغتصابها من قبل أمريكا، والموت اليومي في فلسطين، بعد اغتصابها من قبل إسرائيل... اغتصابٍ في كل مكان... يا الله، كم هي مؤلمةٌ الحياةُ بهذه الصورة، ألا تكفي الصورة الحزينة المحفورة في الذاكرة عبر كل هذه العقود، لقد مضى العمر، ومازال الاغتصاب الكريه مستمرًا، يزحف في كل مكان... وتناول بيده المرتعشة طرف غُتْرَته، وراح يمسح دمعته...





أحمد عبد الله المغلوث

- روائي وإعلامي وفنان تشكيلي سعودي، من مواليد الإحساء بالمملكة العربية السعودية.
- بكالوريوس تاريخ، جامعة الملك عبد العزيز.
- تولى إعداد والإشراف على الصفحات التشكيلية في صحيفة اليوم، ومجلة الشرق بالدمام.
- أسس جريدة (المواطن) السعودية الإلكترونية
www.almowatansa.com

- له قيد النشر روايات: عين الحريم – أرض النفط – العازفة الضريرة والكتب: الكاريكاتير السعودي المعاصر– كتابات في الفن التشكيلي – حكايات ساخرة .. وتقارير مصورة .

- الموقع الإلكتروني: **www.ibtesamat.com**
- البريد الإلكتروني: **nasrat.mardan@bluewin.ch**


شمس
للنشر والتوزيع
٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤ (+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢)
www.shams-group.net